



حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

دورية تصدر كل شهرين من إسطنبول www.hiramagazine.com السنة العاشرة / (مايو - يونيو) ٢٠١٥

خيبة أمل

بينما ترجو منه نورًا،
إذا به ينفجر.. تشتعل الحرائق..
تحتل الظلمات عرش الضياء..
يأسرك إحباط.. تنكسر أجنحة الرجاء..
وتصاب الآمال في الصميم.

* * *

الغضب التّوحي منسوخ بالرحمة
المحمدية/ د. محمد إقبال عروي

٥٦

الإنسان محور التربية والإصلاح
د. سليمان الحقور

٢٨

روح الفتوة
فتح الله كولن

٢

الفتوة والفتيان

وكيف ينبغي أن يدبر أمره، وأمر من فيه وما فيه، فذلك تابع لهذا التمايز في الخلقة".

الإنسان محور التربية والإصلاح هو عنوان مقال "سليمان الدقور" مستفيداً من رؤيته في فكر "فتح الله كولن" حيث يقول: "وأقصد من ذلك لفت انتباه الباحثين والدارسين لإعادة النظر في كتابات الأستاذ "كولن" وتشكيل أبعادها الموضوعية ليسهل تقريبها للعالم وتمكينها في نفوس الناس". وعن ديناميكية المفاهيم القرآنية يكتب "سعید شبار" عن التكامل فيما بينهما، وأن هذه المفاهيم القرآنية محفوظة بحفظ القرآن، لا يمكن أن يطرأ عليها التحريف أو الانتحال أو التخليط، فالقرآن محفوظ بحفظ أصوله وبحفظ كليته، فهي محفوظة من هذا الجانب.

أما مقال "الغضب النوحى منسوخ بالرحمة المحمدية" فهو للكاتب محمد إقبال عروي، يتحدث عن نوح عليه السلام وغضبه على قومه والدعاء عليهم، مستعرضاً أقوال المفسرين في ذلك إلى أن يقول: "إن الوعي بشمولية الرحمة المحمدية وتمثل أبعادها النفسية والتواصلية، من شأنه أن يجعل حالة الغضب النوحى حالة خاصة لا يجوز تعميمها، مع أن عادة الرسل الصبر على أممهم كما يقول محمد أمين الشنقيطي".

ونحن إذ ننتهي من هذا الاستعراض السريع لبعض مقالات حراء في هذا العدد، نأمل أن يجد فيها القراء ما يفيد ويمتع، والله من وراء القصد.

إن "الفتوة" التي يكتب عنها الأستاذ فتح الله كولن في مقاله الافتتاحي لهذا العدد من "حراء" تعني البطولة التي يدّرع بها "الفتى"، وتعني كذلك النخوة والمروءة والشهامة التي هي من أبرز صفات رجل "الفتوة"، أو صفات "الفارس" المقدم الذي يكون على استعداد دائم لإغاثة الملهوف والمكروب والمظلوم والمقهور، فيتقدم نحو المهمات الصعبة ببسالة وشجاعة وإقدام مهما كلفه ذلك من تضحيات، حتى ولو اضطرّ إلى الجود بنفسه وروحه ليحمي الآخرين، ويهيء لهم أسباب الأمن والاطمئنان والسلام، كما أنه يسارع لمساعدة ذوي التعثر الفكري والعرج الروحي، والأخذ بأيديهم للحاق بركب الإيمان المتقدم. والأستاذ في هذا المقال يريد أن يذكر بأن مؤسسات الفتوة والفتيان، والفروسية والفرسان، كانت شائعة ومعروفة في فترات تاريخية من حياة الأمة، لها التفرد بأخلاقها وتقاليدها وصفاتها المتميزة.

وفي "التأصيل القرآني للفكر العلمي" نقرأ لـ"عبد الإله بن مصباح" مقالاً يستشهد فيه بآيات كريمة من القرآن الكريم تلمح إلى الأصول التي اعتمدها القرآن لبناء قاعدة علمية تشكل الأرضية لكل تفكير علمي يستهدي بالقرآن. والشاهد البوشيخي -وكما هي عادته- يكتب في مقاله "اختلاف الخلقة واختلاف الوظيفة"، وفلسفة ذلك وأثره في الإنسان والكون والحياة فيقول: "وهذه نقطة في غاية الأهمية لفقه هذا الكون جملة، وفقه ما هو قائم عليه، وما هو قائم به، وفقه ما يتجه إليه،

٢	روح الفتوة / فتح الله كولن (المقال الرئيس)
٤	التأصيل القرآني للفكر العلمي / د. عبد الإله بن مصباح (علوم)
٧	تأمل واعتبر / حراء (ألوان وظلال)
٨	كيف يتشكل قوس قزح؟ / د. أحمد المرادي (علوم)
١١	الإعلام ودوره في تصعيد لغة العنف / د. مريم آيت أحمد (ثقافة وفن)
١٣	يا يدَ العون أعيني / حراء (ألوان وظلال)
١٤	فقه الإصلاح عند بديع الزمان سعيد النورسي / عبد الواحد بوشداق (قضايا فكرية)
١٨	العناصر اللازمة لفهم الواقع / د. محمد بن إبراهيم السعيد (قضايا فكرية)
٢٢	اختلاف الخلقة واختلاف الوظيفة / أ.د. الشاهد البوشيخي (قضايا فكرية)
٢٤	التكافل والتعايش بين النبات والحيوان / د. ناصر أحمد سنه (علوم)
٢٨	الإنسان محور التربية والإصلاح / د. سليمان الدقور (قضايا فكرية)
٣١	أوليا جليي ورحلته إلى الحجاز / د. سهيل صابان (تاريخ وحضارة)
٣٥	"حُوجَه أفندي" .. قوة المثال في النموذج المجتمعي / د. سمير بودينار (قضايا فكرية)
٤٠	برعم الخليقة / حراء (ألوان وظلال)
٤١	ديناميكية المفاهيم القرآنية وتكاملها فيما بينها / د. سعيد شبار (قضايا فكرية)
٤٤	الكلمة والإنسان / أديب إبراهيم الدباغ (أدب)
٤٧	الطلاق وأثره على نفسية الطفل / د. عثمان أرحياس (تربية)
٤٩	ريادة المسلمين في طب الأسنان / صلاح عبد الستار الشهاوي (تاريخ وحضارة)
٥٢	الأخلاق الاجتماعية في الدعوة النبوية / عبد العزيز العمري (قضايا فكرية)
٥٥	المحطّة الأخيرة / حراء (ألوان وظلال)
٥٦	الغضب النُّوحِي منسوخ بالرحمة المحمدية / د. محمد إقبال عروي (قضايا فكرية)
٦٢	إلى أين؟ / أنهار حرب (شعر)



روح الفتوة



بالحق في كل زمان ومكان، والإفصاح عنه بكل قوة. إن روح الفتوة بهذا المعنى، يسمو أصحابها بإراداتهم، ويحكمون السيطرة على أهوائهم، ويجددون محاسبة أنفسهم مرات كل يوم، يعيدون النظر في تصرفاتهم ويقبضون على زمامها، ويحيون في عالم القلب حتى يصلوا إلى الحياة الحقيقية. إن مشاعرهم لتنتفض دائماً بأسمى الأحاسيس الروحية فيما وراء هذا العالم؛ إنهم يمثلون أنقى وأطهر دم يتدفق في شعيرات المجتمع الذي يعيشون فيه وشرابينه.

ومادامت المجتمعات تملك أمثال هؤلاء الذين يمثلون عصارة الحياة وقوامها، فستبقى سعيدة. أما إذا فقدتهم،

عندما نذكر الفتوة يتبادر إلى الذهن صور أبطال من الشباب مفعمين حيوية من مفرق رأسهم إلى أخمص قدميهم، أمثال علي بن أبي طالب عليه السلام، وحمزة بن عبد المطلب عليه السلام، وألب أرسلان⁽¹⁾، ومحمد الفاتح، وأولو باطلي حسن⁽²⁾... ومهما تعدد مفهوم الفتوة عبر تاريخها، فإن أخص معانيها هو الإيمان بالله وحده لا شريك له، والنظر بعين الاعتبار إلى التضحية بكافة أنواعها في سبيل المعاني الإيمانية والأفكار الدينية والحياة القلبية، والنضال ضد جميع المعتقدات والمفاهيم والتصرفات الباطلة، والارتباط

ع

إن روح الفتوة، يَسْمُو أصحابها بإراداتهم،
وَيُحْكِمُونَ السيطرة على أهوائهم، ويجددون
محاسبة أنفسهم مرات كل يوم، يعيدون النظر
في تصرفاتهم ويقبضون على زمامها، وَيُحْيُونَ
في عالم القلب حتى يصلوا إلى الحياة الحقيقية.

حراء

يثبتهم؛ يواصلون طريقهم لا يلوون على شيء حتى
يبلغوا أهدافهم السامية.

ترى صلابتهم ضد أهوائهم أشد ما تكون، وترى
لينهم وتسامحهم إزاء أخطاء الأصدقاء وهفواتهم في
القمة، لا ينتقدون أحداً، ولا يعابون بأي نقد، يعملون
بصمت ودون أي مظاهر كاذبة، يراعون عدم إثارة الغيرة
لدى الأصدقاء والأعداء على حد سواء.

يندمجون في المجتمع الذي يعيشون فيه، لينبروا
طريقه ويرفعوه إلى المستوى الإنساني اللائق...
يشاطرونه آلامه وأفراحه، ويبحثون دوماً عن طرق شتى
لشحن قلبه بما في أرواحهم من إلهام، حتى تكاد أنفسهم
في سبيل البحث عن تلك الطرق تذهب مكابدة وأنياباً.
والخلاصة أن أبطالنا هؤلاء -في الأمس واليوم
وغداً- يدركون تماماً ماهية نضالهم ويثابرون عليه،
يبحثون بكل عزم عن منابع ماء الحياة. لديهم من ثبات
العقيدة وقوتها ما يحول بين تغيير منهجهم أو الانحراف
عن طريقهم مهما جاءت الدنيا لهم بزيتها وزخرفها. ■

(١) الترجمة عن التركية: هيئة حراء للترجمة. نشر هذا مقال في مجلة
سيزنتي التركية، عدد: ٩٠، سنة ١٩٨٦.

الهوامش

(١) ألب أرسلان: من أكبر حكام الدولة السلجوقية، ولد عام (١٠٢٩).
قام بتوحيد الدولة السلجوقية، وحارب الإمبراطورية البيزنطية.
وفي عام (١٠٧١م) انتصر على البيزنطيين في معركة "ملاذكرد"
التي تشتت الجيش البيزنطي إثرها. اشتهر إلى جانب انتصاراته
العسكرية، باهتمامه بالعلم والثقافة والتعليم؛ فبنى مدارس عديدة،
وأكرم العلماء، وخدم الإسلام خدمات كبيرة. (المترجم)

(٢) أولو باطلي حسن (٩-١٤٥٣): جندي من جنود السلطان محمد
الفتاح، اشترك في فتح إسطنبول (١٤٥٣م)، وكان أول جندي تسلق
أسوار إسطنبول، ونصب العلم العثماني عليها قبل أن يستشهد بنال
الأعداء، فأصبح رمزاً للبطولة في التاريخ العثماني. (المترجم)

فالسير محتوم في طريق الموت والاضمحلال إذ صاروا
كمن قُطعت شرايينه وبدأ الدم ينزف منها قطرة قطرة.
إن روح الفتوة من أقوى ضمانات المجتمع
وجوداً وبقاء، وإن الأبطال الذين يمثلون هذه الروح،
كالرايات يرفرفون فوق حصونها، وكالعيون يسهرون في
ثغورها، وكالأذان يرهفون الأسماع لكل أصوات العدا
والخصومة وأنفاسها. يرون ويسمعون ويتهيأون لكل
طارئ غير مترددين في اقتحام الأحوال وساحات الردى.
تتلاحق في أذهانهم أمواج الألم، وتهب على
أرواحهم أنسام الحزن، وتتجزأ حياتهم -التي تتجاوز
حركة عقارب الساعة- حسب هذه الأنسام، إلى أن
تنعكس أنغامها المملوءة أسى أو فرحاً من أوتار قلوبهم
على من حولهم.

أجل! هؤلاء يعلنون عن كل شفق يلوح في آفاقهم
بصوت جهوريّ وكأنه ابتهالات تضرع، وينشرونه
حواليهم حتى يدندن العالم بأصواتهم. فإن أبصروا في
جبهاتهم ثغرة أو خللاً، أو تراءت لهم أعلام آمالهم
تترف حزنًا وأسى، تأوهوا ألماً وكأنما في حلوقهم غصة.
لا تستطيع الدول الكبرى قوة، ولا تفوق الخصم
تقنية، أن يلقي الرعب في قلوبهم أو أن يدفع بهم
إلى أتون اليأس والاستسلام. الشيء الوحيد الذي
يقلقهم ويتلوون منه ألماً هو اضطراب جبهتهم أو بروز
المشكلات في ثغورهم، أو ظهور تصرف سلبي أو غير
حكيم في صفوفهم. أما إن كانت الصفوف مترابطة قوية،
والثغور حصينة آبية، والقلوب تنبض بنبض واحد، فهم
موقنون بأنهم يستطيعون تجاوز كل الصعاب وتخطي
كل العقبات.

هؤلاء الأبطال في سبيل عقيدتهم المقدسة،
مستعدون دائماً لاقتحام خطوط النار، والكفاح ضد أكبر
البلايا، والنضال ضد أشرس الأعداء، ليكملوا الأعمال
التي بدأوها، ويحققوا الوعود التي قطعوها لأمتهم. وهم
في اجتيازهم لطريقهم الصعب المحفوف بالمهالك
هذا، لا ينشغلون بمدح الناس لهم وثناء الجماهير
عليهم، ولا بالمخاطر التي تنتظرهم عند كل منعطف
من منعطفات طريقهم. لا التصفيق يحفزهم ولا النقد



التأصيل القرآني للفكر العلمي

فإذا اجثت تلك الشجرة من أصلها فإن معارفها لن يصير لها معنى، بل سبتر وتبعد كل البعد عن الكتاب العلمي الجامع للكون، وعن أبعاده اليقينية المطمئنة لنفس الإنسان التي تمكنه من المساهمة الهادفة في البناء الحضاري، من هنا يجب أن تستجلى الإشارات وتُفهم في مسامع السالكين العبارات. **فَاللَّهُ لَمَّا خَلَقَ آدَمَ** **الطَّيِّبَ** ونفخ فيه من روحه، بث فيه من العلم ما أصبح فطرة في البشر. فالفكر العلمي هو أصل تكريم الإنسان وميزان الفطرة السليمة الذي به يترقى في مراتب الكمال التي من أجلها خلق. فهو - كما يؤسس له القرآن - ينبي على أسس الواقع والعقل والوحي، وما صرف فكر الإنسان عن هذه البنية الأصلية للعلم، إلا علل طرأت عليه فأبعدته عن الإحاطة العلمية التي هو مطالب بها.

كثيراً ما يُصوّر للإنسان أن الارتقاء في الفكر يقتضي التحرر من الماضي والانسلاخ عن الأصول، متجاهلاً أن الشجرة الطيبة - التي ترقى في السماء فتؤتي أكلها كل حين بإذن ربها - ما تفرعت أغصانها باسقة وأثمرت زهورها يانعة، إلا من جذورها الضاربة أصولها في الأرض، أما الشجرة التي اجثت أصولها من فوق الأرض، فلا يمكن لها أن تورق وتزهر لأنها ليس لها قرار. كذلك شجرة العلم، فهي ثابتة بجذورها الضاربة في أصول الفكر الإنساني، تلك الجذور التي منها تأصلت الفروع، مشكّلة في تكاملها وانسجامها تلك الرؤية الشمولية الجامعة والمتوازنة بين الحقائق التي أوصلت الإنسان إلى الحقيقة الواحدة التي يحتضنها الكون.

ل

الفكر العلمي هو أصل تكريم الإنسان وميزان الفطرة السليمة الذي به يترقى في مراتب الكمال التي من أجلها خُلق، فهو كما يؤسس له القرآن، يبنّي على أسس الواقع والعقل والوحي.

حذاء

الحواس، ودائرة المعقولات التي تشمل المغيب عن الحواس الذي لا يدرك إلا بقوة الفكر وهو عالم الغيب النسبي ومفتاحه العقل، ودائرة الإخباريات التي تشمل المغيب عن الحواس وعن العقل الذي أخبر به الوحي وهو عالم الغيب المطلق ومفتاحه النقل.

فقد جاء في كتاب الله ﷻ الكثير مما يفيد هذا التصنيف، وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (العنكبوت: ٢٠)، النموذج الأمثل لهذا النهج؛ فالآية دعت من خلال السياق الذي جاءت به صيغتها، إلى الترقى في هذه الدوائر المعرفية الثلاث، بحيث أشار الشطر الأول منها في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ إلى دائرة المحسوسات بحكم أن الأرض تمثل واقع الإنسان المحسوس، والسير فيها يمكن حواسه من الإدراك المباشر لطبيعتها. أما الشطر الثاني منها فقد أشار في قوله تعالى: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾ إلى دائرة المعقولات بحكم دعوته الإنسان إلى النظر، أي البحث والتفكير في أسرار بدء الخلق التي غبرت ولم يعد له عليها رؤية إلا من خلال الآثار ثم في آفاق النشأة الآخرة التي لم تحدث بعد وليس له عليها دليل إلا من خلال الاستشعار. وبين هذه وتلك، هناك عامل الزمن الذي بفعله تتغير الأشياء وتتسلسل الأطوار، فحتى يمكن للإنسان أن يطلع على هذا العالم الغابر بين بدء الخلق ونشأته الآخرة، كان لا بد له من الاعتماد على العقل الذي -كما أشارت إليه الآية- يُختزل بين عبارتي "انظروا" و"كيف". أما الشطر الثالث من الآية المتجلي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فقد أشار إلى دائرة الإخباريات، لأن محتواه من الغيب المطلق، أي الحقيقة التي ليس بعدها

فيإذا رأيت العالم تنزل علمه التنزيل المتكامل على هذه الأسس الثلاثة فتوافق عنده الواقع والعقل مع الوحي، فاعلم أن ذلك من سلامة فطرته، وإلا فهو في ضعف من الفطرة تُبعده تداعياتها عن الإحاطة العلمية بحقائق الأشياء ومضامينها.

فإن الله ﷻ لما حذرنا من عاقبة التكذيب الناتجة عن الجهل وعدم الإحاطة العلمية بحقائق الأشياء في محكم قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ مَادَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (النمل: ٨٤)، إنما أراد سبحانه أن يستنهض فينا همة الفكر العلمي؛ حيث قال القرطبي -رحمه الله- في تفسير هذه الآية: "أي كذبتهم جاهلين غير مستدلين، وأضاف أن هذا تقرير وتوبيخ من الله، أي ماذا كنتم تعملون حيث لم تبحثوا عن الآيات ولم تفكروا ما فيها".

وهذا يدعوننا إلى الوقوف ملياً مع دلالات الآية التي من خلال صيغتها جعلت عدم العلم بالآيات معطوفاً على التكذيب بها، وذلك بواسطة "واو" الحال: ﴿أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْمًا﴾؛ لنستخلص أن التكذيب بالآيات إنما ينتج عن عدم الإحاطة بها علماً (أي كذبتهم والحال أنكم لم تحيطوا بها علماً)، ولهذا جاء التقرير منه سبحانه في قوله: ﴿أَمْ مَادَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ للتأكيد على أن الإنسان إذا لم يكلف نفسه عناء البحث والنظر في حقائق الأشياء من خلال تشغيله الدائم لتلك الملكات التي فطر عليها من يوم أن سواه الله بشراً، أورد موارد الجهل فأدخل مداخل الباطل، لأن هذا الكون -بكل مكوناته الظاهرة والباطنة التي يعيشها الإنسان بحواسه ومداركه- إنما هو آيات ناطقة بعظمة مبدعها، وبصائر تستنهض في الإنسان الفكر العلمي لتعصمه من الجهل حتى لا يقع في التكذيب. وعليه فإن الله ﷻ بدعوته لنا إلى النظر والبحث في هذا الكون، إنما أراد بنا اليقين عن طريق الاستقامة العلمية الموروثة عن الفطرة الأدمية، تلك الفطرة التي كانت -وما تزال- تدفع بالإنسان إلى قراءة الكون من خلال الإحاطة العلمية بالدوائر المعرفية الثلاث: دائرة المحسوسات التي تشمل الواقع الذي هو عالم الشهادة ومفتاحه

إلا الضلال، والتي إليها ينبغي أن تؤول نتائج الشطر الأول والثاني حتى تتحقق الإحاطة العلمية التي من أجلها جاءت الآية مستنهضة الفكر في الإنسان.

وبقدر ما تتنامى هذه الدوائر الثلاث في فكر الإنسان بقدر ما يترقى في درجات الكمال العلمي، وبقدر ما تتعاضم مجالاتها في وجدانه بقدر ما ينال من العلم النوراني. حتى إذا تداخلت نطقها وتمازجت معالمها، شكلت بينها فضاء متجانساً للعلم تتكامل فيه عوالم الواقع والعقل والوحي في قراءة تفكيرية للكون هدفها بناء فكر علمي وعاؤه الإنسان الكامل.

فإذا انطلقت معرفة الإنسان بالكون من خلال الجمع بين هذه العوالم الثلاثة، تكاملت في وجدانه عناصر الواقع والعقل والوحي فكان من الموقنين، وإلا وقع في سوء الفهم المفضي إلى ظلام الوهم، لأنه بخوضه في عالم واحد أو عالمين من هذه العوالم الثلاثة وتركه للغير، يكون قد وقع في الإفراط أو التفريط وذلك عين التطرف. فأصحاب العقول المجردة أحاطوا بدائرتي الواقع والعقل إحاطة مكنتهم من تصنيف كل المصنفات والكشف عن كل المكونات، لكنهم لعدم اهتمامهم بدائرة الوحي، حُرموا من لذة الإدراك الحقيقي لمعنى الوجود، فعزلتهم محدودية معارفهم عن المقومات الراقية للطبيعة، وألزمهم التقيّد بمحدودية منافعها المادية. كما أن أصحاب النقل ممن أحاطوا بدائرة الإخباريات ولزموا الجهالة فيما سواها من المعارف، وقعوا في سوء الفهم لنصوص الوحي، فحرموا من لذة الاستيعاب المقاصدي لعمق الآيات ولأبعاد ومضامين الأمثال التي تضربها.

ومن هنا يجب أن نوقن بأن العلم لا يرقى إلى مستوى الإشراق الفكري، إلا إذا نُزّلت دوائره المعرفية الثلاث تنزيلاً متوازياً على الزوايا الثلاث لمثلث متساوي الأضلاع. أما إذا تم التنزيل على زاوية واحدة أو زاويتين من هذا المثلث، فسيختل توازنه ويميل إلى ذلك الطرف وذلك مفهوم التطرف.

وبما أن إدراك الإنسان يتوسع بتوسع معارفه، فالغاية أن تتمدد تلك الدوائر لتلتقي في مركز المثلث.

هناك في نقطة التقاطع بين الدوائر تبدأ الإحاطة العلمية المطلوبة، ثم كلما توسعت الدوائر المعرفية كلما اتسع مجال التداخل بينها وتفاعلت مكوناتها بتجانس عناصرها؛ بحيث يصير المغيب واقعاً، والواقع معقولاً، والمعقول مثبتاً للغيب في يقين الإنسان.

ففي العالم المحسوس الذي مجاله الواقع وأدواته الحواس، تكون الأشياء موجودة بذاتها فتدرك بالمعاينة المباشرة وذلك عين اليقين. أما في العالم المعقول الذي مجاله الغيب النسبي وأداته العقل، تكون الأشياء غائبة بذاتها موجودة بآثارها فلا تدرك إلا بقوة العقل وذلك علم اليقين. وأما في عالم الإخباريات الذي مجاله الغيب المطلق وأداته النقل، فتغيب الأشياء بذاتها وآثارها ولا يمكن إدراك حقيقتها لا بالحواس ولا بالعقل، وإنما بالنقل لما جاء به إخبار الوحي وذلك حق اليقين.

وهذا يدلنا من خلال بناء العالم الذي يدي - كما رأينا - جزءاً منه واقعاً محسوساً، وجزءاً ثانياً مغيباً عن الحواس مدرّكاً بالعقل، وجزءاً ثالثاً مغيباً عن الحواس والعقل لا يدرك إلا من أخبار الوحي على أن الإحاطة العلمية لا تتأتى إلا من خلال توحد هذه الدوائر الثلاث في فضاء التداخل بينها؛ لأن في ذلك الفضاء ستتجانس خصائص كل دائرة مع خصائص الدائرة الأخرى، مما سيفسح المجال أمام حرية تلاقح المعلومات، فتزواج عوالم الواقع والعقل والوحي، وتضمن للإنسان التفتح على مقومات الكمال التي من أجلها خلق.

أما إذا تقلصت هذه الدوائر المعرفية ولم تنم وتتداخل مجالاتها، فسيجد الإنسان معلوماته بعيدة عن التناسق، وسيؤدي به عدم الانسجام بين مكوناتها إلى البعد عن الكمال. كما أنه إذا اقتصر معرفته على دائرة واحدة أو دائرتين، فسينعزل هنالك وينقطع عن كل ما سيأتيه من الأخرى؛ فإذا انحصر في دائرة الواقع - مثلاً - ولم يطلع على الدائرتين الأخرين، وقع في تعظيم الماديات وربما تأليهها كما حصل لأقوام عظمت أشكالاً من الظواهر الكونية والطبيعية إلى حد التأليه. كما أن الإنسان إذا بقي منحصرًا في دائرة العقل، فسيتيه في متاهات الأفكار المهلكة والفلسفات

المشككة فينحرف عن الفطرة السليمة. وكذلك إذا انزوى في دائرة النقل وانعزل عن الواقع والعقل اللذين تمكنه متغيراتهما من فقه مقاصد النقل، فسيقع في الجمود بدل الاجتهاد، والتقليد بدل التجديد. فكل دائرة يجب أن تكون صلة وصل، أو واسطة بين الدائرتين الأخريين، فإذا أراد الإنسان أن يترقى في درجات الكمال العلمي، تدرج في سلم المعرفة من المحسوس إلى المعقول إلى المنقول، فكان ذلك عروجاً على النمط الإبراهيمي الذي صور لنا نموذجاً رائعاً في الترقى الفكري من عين اليقين المتجلي في ملكوت السماوات والأرض الذي هو الواقع الذي قال فيه ربنا ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام: ٧٥)، إلى علم اليقين المتجلي في الاستقراء التجريبي المبني على العقل، وذلك من خلال ملاحظة الكون ووضع الفرضيات حول ماهيته، ثم إخضاعها للتجربة كما نستشفه من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿١﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٢﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ٧٦-٧٨)، إلى حق اليقين المتجلي في الحقيقة المطلقة التي ليست بعدها حقيقة، وهي التي قال فيها ﷺ في آخر هذا المشهد كما حكى عنه ربه تعالى: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام: ٧٩).

وهكذا يكون الخطاب القرآني من خلال دفعه بالإنسان إلى النظر والتفكير في ملكوت الله، إنما يريد إعادة بناء الفكر الإنساني على أصوله العلمية الثابتة، تلك الأصول التي فطر الله عليها الإنسان منذ أن خلق آدم ﷺ وعلمه الأسماء كلها، والتي ما فتئت الرسالات السماوية تذكر بها عند كل محطة من محطات النبوة. ■

تأمل واعتبر

شجرة تبدو هنا في ركوع وسجود،
وزهرة تبدو هناك في ضراعة وخشوع..
والكون إبداع وإعجاز كل ما فيه،
عجباً يثير، وفكراً يستثير.

* * *

(*) كلية العلوم، جامعة ابن طفيل / المغرب.

دنياك لا تنسها، وواجباتك فيها لا تتركها، ولكن إياك أن تهمل دواخلك، أو تناسى إعمار قلبك، وإنهاض روحك، والارتفاع بها إلى أعلى منازل القرب. واجهد أن تكون عطرًا يتعالى، يشارك الملائكة في تسابيحها، وفي ذكرها وتحميدها.

الموازين

كيف يتشكل قوس قزح؟

اللون الأخضر -مثلاً- فهذا يعني أن هذه المادة تمتص كل الألوان ولا تعكس إلا الأخضر، وبالتالي نراها بالعين المجردة خضراء.

ويتفق كل الباحثين والمختصين، أن للألوان تأثيرًا نفسيًا على الإنسان، فكل لون له تردد خاص به مختلف عن الآخر، ومن خلال هاته الترددات والموجات يؤثر اللون على العين وعبرها على خلايا الدماغ بأشكال مختلفة حسب طول الموجة والتردد، حيث تتأثر نفسية الإنسان وراحته إيجابًا أو سلبيًا. فمثلاً نجد الباحثين المختصين في الطب وعلم النفس، يؤكدون على أن اللون الأخضر يساعد على التنفس بعمق، ويساعد أيضًا

الألوان عبارة عن ضوء تتأثر به العين، وكل الألوان المرئية أصلها واحد، ولكل لون تردد معين وموجة معينة ينتشر بها في الأفق، حيث نرى فقط جزءًا بسيطًا من هاته الترددات والموجات الكهرومغناطيسية، وهو ما يسمى الطيف المرئي (Visible Spectrum) الذي تتراوح موجاته تقريبًا ما بين ٤٠٠-٧٠٠ نانومترًا، فعندما يسقط الشعاع الضوئي على جسم ما فيبدو أبيض، يدل ذلك على أن هذا الجسم يعكس كل الألوان ولا يمتص شيئًا منها، وعندما تبدو مادة ما سوداء، فهذا دليل على أنها لا تعكس أي لون ولكنها تمتص كل الألوان. أما رؤية





ماء المطر كروية الشكل، بحيث يتم حدوث عملية الانعكاس والانكسار داخل القطرات، وتخرج منها عدة ألوان مختلفة وهي التي يتكون منها الضوء الأبيض. هاته الألوان التي تظهر عند الخروج من داخل القطرات كروية الشكل، هي الظاهرة نفسها التي تحدث عند خروج الأشعة من الموشور، حيث تظهر ألوان الطيف بشكلها البديع، وذلك بعد مرور الأشعة بين وسطين (ماء، زجاج، هواء...) مختلفي معامل الانكسار؛ فالضوء أو اللون الأزرق -مثلاً- ينعكس وفق زاوية تقدر ٤٠,٥ درجة مقارنة مع أشعة الشمس المتساقطة، بينما اللون الأحمر ينعكس وفق زاوية قدرها ٤٢ درجة.

على إعادة التوازن إلى خلايا الجسم، وبالتالي يدخل البهجة والسرور إلى قلب الإنسان، لذلك نجد الأطباء في المستشفيات وفي العمليات الجراحية يرتدون الزي الأخضر. وإن اللون الأزرق -حسب الخبراء- يساعد على تخفيض ضغط الدم، وتنشيط الغدة النخامية، ويقوي نخاع العظم، كما يساعد على النوم العميق.

كيف يظهر قوس قزح؟

يظهر قوس قزح -ويسمى أيضاً قوس المطر أو قوس الألوان- بعد سقوط المطر أو خلال سقوطه والشمس مشرقة. ويعتبر قوس قزح ظاهرة لتشتت الضوء (Dis-persion) المنبعث من الشمس والمتساقط على قطرات

إن معامل الانكسار في وسط مادي، يأخذ قيمًا مختلفة حسب طول الموجة المنتشرة في الفضاء، وتبين قاعدة الانكسار أن الأضواء التي تتساقط على وسط يتكون من موجات مختلفة الطول، تنكسر بزوايا مختلفة. إذ الضوء الأبيض، هو مزيج من كل الموجات الكهرومغناطيسية للطيف المرئي، من الأحمر إلى البنفسجي. ولهذا فإن كل لون، ينعكس من خلال زاوية معينة، وهو ما يعطينا ظاهرة "تشتت الضوء" الذي يمكن مشاهدتها عند مرور الضوء الأبيض عبر الموشور؛ حيث ينكسر الضوء إلى ألوان مختلفة بزوايا متعددة أكبرها زاوية البنفسجي، وأصغرها زاوية اللون الأحمر. من أجل رؤية قوس قزح بوضوح، يجب علينا دائمًا أن نتموقع بين الشمس ومكان تساقط المطر تاركين الشمس في الخلف، وإذا كنا واقفين طبقًا لزاوية معينة، يمكن لأشعة الضوء أن تقوم بانعكاس مزدوج، حيث يظهر لنا قوس قزح ثانوي فوق القوس الأول الرئيسي. كما أن إحدى خصائص القوس الثانوي، هي أن الألوان تظهر معكوسة؛ فيظهر اللون البنفسجي في خارج القوس، بينما يبقى اللون الأحمر داخله.

قوس قزح يظهر في غالب الأحيان على شكل نصف دائري، ويكون طيف الألوان في القوس متدرجًا من اللون الأحمر من الخارج نحو البرتقالي فالأصفر فالأخضر فالأزرق فأزرق غامق (نيلي) فبنفسجي من الداخل. وفوق القوس الرئيسي الأول يوجد قوس ثانوي، حيث ترتب فيه الألوان ترتيبًا عكسيًا، ويكون هذا القوس معتمًا وأقل إضاءة، لوجود انعكاس مزدوج في قطرات المياه.

ويمكن رؤية الألوان عندما تكون زاوية الانعكاس بين الشمس وقطرة المياه، وخط رؤية من يشاهد هذه الألوان هي ٤٠ و ٤٢ درجة. وعندما تكون الشمس منخفضة في السماء، يظهر قوس قزح عاليًا نسبيًا، وعندما ترتفع الشمس إلى الأعلى، يظهر قوس قزح منخفضًا في السماء، حيث يحتفظ بزاوية ٤٠ إلى ٤٢ درجة. ولكن عندما تكون زاوية الشمس فوق الأفق أكبر من ٤٢ درجة، لا يمكن رؤية قوس قزح، لأن الزاوية

المطلوبة تمر فوق رأس المشاهد.

في الحقيقة، إن القطرتين المتتاليتين المتقاربتين هما اللتان تشكلان رؤية قوس قزح، فالأشعة الملونة القادمة من قطرات متباعدة، لا تلمس العين مباشرة ولا تدخل ضمن مجال الرؤية.

ويمكن مشاهدة هذه الظاهرة الفيزيائية البصرية في الطبيعة، عند تواجدك بين الشمس ومنطقة ممطرة، حيث تتم مشاهدة قوس قزح الذي هو عبارة عن انكسار وتحلل لضوء الشمس خلال تساقط قطرات ماء المطر. ويظهر قوس قزح في الواقع على شكل نصفين؛ جزء علوي في السماء، وجزء سفلي في محيط الأرض. وتحدث هذه العملية على الشكل التالي: عندما يسقط ضوء أبيض على قطرة ماء، ينكسر على وجهها الداخلي باختراق القطرة، ثم ينعكس على الجهة الأخرى ويعود منكسرًا مجددًا كي يخرج على الهواء مرة أخرى. وتخرج الألوان المختلفة مكونة زوايا تتراوح بين ٤٠ درجة (اللون البنفسجي) و ٤٢ درجة (اللون الأحمر) مقارنة مع خط الضوء الأبيض المتساقط والقادم من الشمس. وعندما يشاهد شخص ما قوس قزح، فإنه يتلقى من كل قطرة ماء شعاع لون ما، ولكن يرى في المحصلة مجموع ألوان الطيف المرئي، ولهذا يرى على شكل قوس، حيث تكون قطرات نفس اللون على قوس دائري، لأنها ترى من خلال الزاوية نفسها.

وجدير بالإشارة إلى أن قوس قزح يظهر مزدوجًا، لأن هناك مسارًا ثانيًا للأشعة يحدث داخل قطرة الماء بواسطة انعكاسين. وهكذا نشاهد القوس الثاني بزوايتين تتراوحان بين ٥٢ درجة (شعاع اللون الأحمر من داخل القوس) و ٥٤ درجة (شعاع اللون البنفسجي من خارج القوس)، لأنه يحدث في واقع الأمر انعكاسان داخل القطرة قبل خروج الأشعة منها. والملاحظ أن ألوان قوس قزح الثاني تبدو للمشاهد معكوسة، وشدة بريقتها أقل وأضعف من قوس قزح الرئيسي. ■

(٤) وزارة التربية الوطنية والتكوين المهني / المغرب.



الإعلام

ودوره في تصعيد لغة العنف

دعماً أو تحريضاً- من خلال تزويده بكمّ من البرامج والتعليقات والمقالات والتحليلات... إلى أن تصل إلى استقطاب المتلقي- بشكل أوتوماتيكي- في قضايا مختلفة.

وفي هذا الإطار تخصصت مجموعة من المواقع الإلكترونية، والصحف، والمجلات، والإذاعات والتلفزيونات العربية غير الرسمية- على سبيل المثال- في ترويع الإنسان العربي العادي والمثقف منذ مدة، بأساليب لا تعتمد على منهج الإقناع الحضاري، بل على التخويف وإرهاب المتلقي بطريقة ماهرة؛ بحيث يخضع في النهاية للرسالة الإعلامية، التي تريد تلك الوسائل الإعلامية فرضها وتمريها وتكريسها بالقوة.

وهذا ما قامت به بعض وسائل الإعلام في السنوات الأخيرة لقلب الحقائق، بحجة الديمقراطية الإعلامية

كلنا يعرف أن الإعلام سلاح ماض يُستخدَم للإخضاع والهيمنة والترويض. ففي الغرب- مثلاً- تُعتبر وسائل الإعلام والدعاية، عتاداً هائلاً لتطويع المجتمعات وبرمجتها. كما أن الفضائيات العربية تعتبر المصدر الرئيس للأخبار لدى المشاهد العربي، حيث أظهرت إحصائية في هذا الجانب، أن نسبة ٧٣٪ من المشاهدين العرب، يعتمدون على الفضائيات كمصدر للأخبار، وهذه النسبة كبيرة إذا ما قورنت بمصادر الأخبار الأخرى، كالصحف والمجلات والإذاعة المسموعة.

ولقد أدت وسائل الإعلام وظيفتها الخطيرة بجعل متلقيها أسرى لرسالتها وتعليماتها ورهن إشارتها، وذلك عن طريق برمجة العقل الباطن للمشاهد أو المستمع أو القارئ، باستخدام التكرار الممل لوجهة نظر معينة- إما

ل

أصبح العنف جزءًا عاديًا من المشهد الحياتي اليومي، يراه الطفل والشاب، ويتابعه عبر وسائل الإعلام بشكل يومي، وكل هذا يخلق عقدًا، ويولد أزمات نفسية وظواهر غير مقبولة قد تظهر نتائجها ما يهدد الأوضاع النفسية لهذا الجيل والأجيال القادمة.

حذاء

الغربية، لإجبار المتلقي عن التنازل عن الكثير من قيمه ومفاهيمه النبيلة وتجريده من القيم الأخلاقية الإسلامية. لقد أصبحت وسائل الإعلام مشحونة بمحتوى عنفي حقيقي؛ فنشرات الأخبار تكرر لأحداث القتل والانفجارات والدمار والصراعات وطقوس المآسي البشرية، ويتفنن الإعلاميون من أجل إحراز السبق في الإثارة عبر التركيز على المشاهد الأكثر هولاً وقدرة على أحداث الصدمة الإدراكية، كما تتسابق الوكالات الإعلامية على التقاط أشد المشاهد فظاعة لأن لها أكبر سوق من حيث الإقبال على بثها. ورغم أننا أمام واقع إنساني حقيقي، إنما المشكلة تكمن في أن هذه المشاهد تعرض مسلوخة عن سياقها التاريخي والسياسي، وتقدم مكثفة وكأنها حقيقة قائمة بذاتها، فلا اهتمام إعلاميًا بتاريخ هذه الأحداث ومسبباتها وأبعادها السياسية الإنسانية مثلما يندر الوقوف عند نتائج بث هذا الغيض من العنف الحي على نفسية المشاهدين خاصة الأطفال والشباب، حيث لا يمكن تجاهل الآثار السلبية على نفسياتهم والإحساس بالعيش في عالم مليء بالأخطار والتهديدات.

وفي العراق الجريح، فإن المضاعفات السلبية لظاهرة العنف المعروف عبر وسائل الإعلام، هي الأخطر في إفرازاتها السلبية من الناحية النفسية والتربوية والاجتماعية. فالعنف أصبح جزءًا عاديًا من المشهد الحياتي اليومي يراه الطفل والشاب بعينه ويتابعه عبر وسائل الإعلام بشكل يومي وتفصيلي... وكل هذا يخلق عقدًا، ويولد أزمات نفسية وظواهر غير مقبولة قد تظهر نتائجها -الآن أو في المستقبل- ما يهدد الأوضاع النفسية لهذا الجيل والأجيال القادمة.

هذه الصور تنقل معاناة ممثلة في صور العنف الممارس على المواطن المتلقي بما يشاهده من واقع التحديات الكبرى، والتي جعلته ينقسم في مواقفه إلى فئتين: الفئة الأولى تأثرت بالعنف الترفيهي وتبني موقف تطبيع العلاقات مع هذه المشاهد لكثرة عرضها، فلم تعد تثير فيها الأحاسيس القومية، ولا تحفز فيها مشاعر مناصرة القضايا المصرية المشتركة. فتكرار عرض صور العنف، يولد لديها شعورًا باللامبالاة تجاه قضاياها، نتاجًا لتعود عينها على مشاهدة صور العنف. وقد لا تحرك بداخلها مشاعر الغضب تجاه ما يحدث من ظلم وقهر، ولا تدفعها إلى التأزر والتعاقد مع إخوانها المسلمين، أو تحفز وتقوي الشعور والانتماء القومي، وتدفع لـم الشمل وتوحيد الجهود والتآخي والتعاقد، وتكون النتيجة تبنيها لتيار الإعلام السطحي الذي أصبح يشكل ظاهرة عنف خطيرة من نوع آخر بدأت تظهر نتائجه على عدة مستويات؛ منها عدم الاستقرار في العلاقات الاجتماعية على مستوى الأفراد والجماعات ومؤسسات المجتمع، واستهتار بالقيم والأخلاق والمبادئ، وإشاعة الفساد الأخلاقي والترويج للمخدرات والفساد عبر الخطوط الساخنة، مما يؤدي إلى الاضطراب الاجتماعي، وغرس مفاهيم الانهزامية والاتكالية والهوان.

الفئة الثانية تأثرت بالعنف الإخباري وتبني موقف رفع راية المقاومة والنضال، من أجل إعادة الكرامة والعزة والشرف والحق لأبناء الأمة، لأن من أهم الآثار التي تتركها مشاهدة العنف على هذه الفئة ما يلي:

- ١- رُفِع حدة الآثار النفسية والعاطفية عند الفرد، مما قد يقود إلى ارتكاب سلوك عنيف تجاه الآخرين. ويتوقف سلوك الفرد العنيف (أي استجابته للمشاهدة) على مدى إحساسه وشعوره بالإحباط والضيق والتوتر.
- ٢- تعزيز السلوك القائم بالفعل داخل الفرد، حيث تعمل المشاهدة للعنف أو قراءتها، على تعزيز وتدعيم السلوك الموجود أصلاً عند المشاهد، وذلك لأن الشخص العنيف -بسبب دوافع العنف داخله- يرى السلوك العنيف المتلفز على أنه تجربة حقيقية.



يا يدَ العون أعيني

يا رائق الفكر، يا صافي الروح،
يا طاهر القلب، يا بريئاً من الكدر،
تماماً كالماء الذي تنظر إليه وتتأمل فيه..
غائب أنتَ في تأملاتك،
لا تعي ما يجري حولك،
ولا تعير اهتماماً للآتي من الأيام،
وما يمكن أن تكنه لك من آلام..
فتَح الله عين بصيرتك، وأحدَّ بصرك،
وجعل في قدميك قوةً للسير والإقدام،
مهما طالت الطريق، وتَوَعَّرَت المسالك.

* * *

٣- التعلم والتقاليد، إذ من المعروف أن إحدى طرق تعلم الإنسان هو التقليد والمحاكاة، من هنا تأتي خطورة عرض أفلام الكائن الأسطوري رمز العنف، لأن البعض قد يقلد على غرارها.

على أن ما هو أخطر من هذا وذاك، هو ما يقوم به الإعلام -بطريق مباشرة وغير مباشرة- من إيقاظ النزعات والرواسب الدينية والمذهبية والقومية والإثنية، ولا سيما أنه يخاطب كتلاً هائلة من البشر أسهم هو نفسه في تنميطها وتسطيح ثقافتها، وتحويلها إلى قوة استهلاك للسلع المادية والسلع الثقافية سواء بسواء. والإعلام الغربي الكثيف، لا يترك للمستمع أو المشاهد على وجه الخصوص، فرصة للتأمل والتفكير والتحليل، بل يشده في كل لحظة من لحظات الاستماع أو المشاهدة، إلى تبني الموقف الذي تضمه الرسالة الإعلامية، ويتمسك لأداء هذه الرسالة بسلاح النقل المباشر والحي للوقائع والأحداث، على نحو يوحي بالحياد والبراءة والتزام الحقيقة، ولا شيء سوى الحقيقة. ومن هذا المنطلق، ينبغي على كل المؤسسات التربوية والتعليمية والإعلامية والحكومية، الدعوة إلى تأسيس ميثاق إعلامي أخضر مقابل الإعلام الأصفر؛ ينبذ العنف، ويمنع بث كل المواد الإعلامية التي تحض وتحث على العنف بكل أشكاله (العنف الترفيهي أو الإخباري)، وتدعو إلى التسامح واحترام حقوق الإنسان والاعتدال والوسطية.

وإننا اليوم، نعتقد وبشكل عميق، أهمية أن يسعى الإعلام الحر لإنتاج صيغ احتضان ورعاية كل المبادرات والتوجهات التي تعتبر معتدلة ووسطية، وحفظ وصيانة وتفعيل المكتسبات الحضارية، وتوفير البيئة الملائمة لمواجهة التحديات والصعوبات التي تستهدف عمق مقوماتنا وحاضر ومستقبل حضارتنا. ويحدونا الأمل باتجاه أن تتبنى المؤسسات الثقافية والإعلامية الوطنية هذه المسألة، وتقود الحملة الإعلامية والتثقيفية لتأكيد خيار الاعتدال والوسطية في الوطن والأمة. ■

(*) كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل بـ"القنيطرة" / المغرب.



فقه الإصلاح

عند بديع الزمان سعيد النورسي

على الفقر، والقضاء على الاستبداد، والدعوة إلى وحدة المسلمين أو اتحادهم.

وكان هاديه ومرشده، القرآن الكريم والسنة المطهرة بنورهما في الظلام الذي خيم على تركيا وقتئذ، شاقاً طريقه إلى القلوب والعقول التي كانت غارقة في لوثات الجاهلية العمياء. ونظراً لهذه الظروف، كان لا بد من إعداد محكم من أجل عملية الإصلاح والتغيير.

كان الهدف الرئيس لبديع الزمان

سعيد النورسي -رحمه الله- هو "إنقاذ

الإيمان" الذي يبعث الطمأنينة في

الفرد، والسعادة في المجتمع، بدلاً من تقديم صفات اجتماعية غير قابلة للتطبيق.

أما الأهداف الأخرى التي سوف تنبثق بشكل طبيعي من هذا الهدف الكبير هي: القضاء على الجهل، والقضاء

ل

كان الهدف الرئيس لبديع الزمان سعيد النورسي، هو "إنقاذ الإيمان"، الذي يبعث الطمأنينة في الفرد، والسعادة في المجتمع، بدلاً من تقديم صفات اجتماعية غير قابلة للتطبيق.

حراء

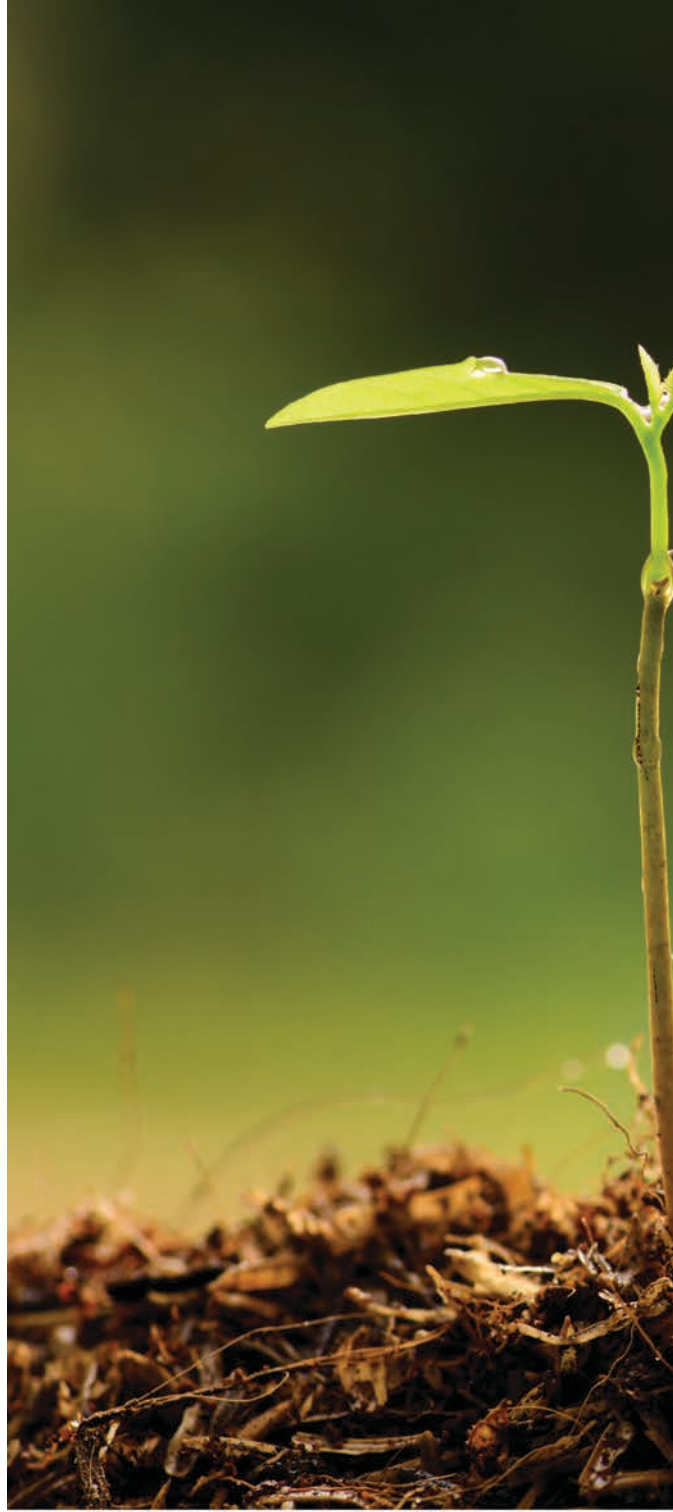
سمت به نفسه وما زكت به روحه، حتى يجعل قلوبهم صلبة قوية تتحدى كل الصعاب، وتدعو إلى الإيمان والتضحية بالغالي والنفيس من أجل الإقرار والتمكين لشريعة الرحمان.

يقول أحد تلاميذه كما جاء في كتاب ذكريات النورسي: "كان يتحدث في أغلب دروسه عن الأخوة والإخلاص، وكان يشخص مرض زماننا هذا بالغرور والأنانية وحب النفس".

لقد قام الأستاذ النورسي بعملية تنوير وترشيد لطلاب النور، ليستطيعوا أداء المهمات المنوطة بهم، فأوصاهم بالبعد عن الجدل العقيم مع الآخرين، ودعا إلى الصفح عن من أساء إليهم، وأن لا يحملوا روح الانتقام في نفوسهم ولو مثقال ذرة.

٢- الاهتمام بالبيت والأسرة: اهتم الأستاذ النورسي بالأسرة والبيت أيما اهتمام، وأولاهما العناية الفائقة زوجاً وزوجة وأولاداً، ودعا إلى الحفاظ عليها، فهي الخلية الأولى في المجتمع الصالح فقال: "إن الحياة البشرية هي قلعة الإنسان الحصينة، ولا سيما للمسلم هي كالجنة المصغرة وديناه الصغيرة".

وقد كتب رسالة الحجاب التي حوكم بسببها، والتي توجه بها إلى كل فتاة تركية، صيانة لها من الدعاوى الهدامة التي تدعو إلى السفور ورفع الحشمة والحياء بدعوى التقدم والتحضر ومسايرة العصر، وأوصى بالوالدين والأقارب وبإحسان تربية الأولاد، حيث قال: "اجعلوا بيوتكم مدرسة نورية مصغرة، وموضع تلقي العلم والعرفان، كي يتربى الأولاد الذين هم ثمار تطبيق هذه السنة على الإيمان، فيكونوا لكم شفاء يوم القيامة وأبناء بررة في هذه الدنيا". ومن هنا يتضح أن سبب اهتمام بديع الزمان بالأسرة والبيت، إنما راجع لكون



١- إعداد النفس والفرد: بدأ النورسي بنفسه فعالج أمراضها وخلصها من أدران الحياة المادية ومن كل ما يخدش المروءة والعفة والفضيلة، وزهد في المال والحياة والمنصب حتى أصبح مثلاً يحتذى به، وقد قال عن نفسه: "لا بد أن أبدأ بها أولاً، لأن من عجز عن إصلاح نفسه، فهو عن غيرها عاجز". ثم انتقل بعد ذلك إلى إخوانه النورانيين، ناقلاً لهم ما

لقد قام الأستاذ النورسي بعملية تنوير وترشيد لطلابه؛ فأوصاهم بالبعد عن الجدل العقيم مع الآخرين، ودعا إلى الصفح عن من أساء إليهم، وأن لا يحملوا روح الانتقام في نفوسهم ولو مثقال ذرة.

حذاء

الأسرة هي النواة الأولى لتكوين المجتمع.

٣- دعوته إلى صلاح المجتمع: وذلك بتخليصه من الأمراض النفسية المهلكة من عداوة وتحاسد وتباغض وفرقة وعطالة وتهالك على الذات.

ولطالما حارب العجز والجزع اللذين هما شأن الضعفاء فيقول: "إن رمت الحياة فلا تتشبث بالعجز فيما يمكن حله، وإن رمت الراحة فلا تستمسك بالجزع فيما لا علاج له".

والمأمل في هذا الكلام وغيره مما هو مبثوث في رسائله، يظهر له بجلاء أن النورسي طبيب نفساني وروحاني، ولا يكاد يرى جانباً من جوانب الضعف في المجتمع إلا يبادر إلى إصلاحه بما يناسب من دواء. وكان يربي تلاميذه على الحياة البسيطة البعيدة عن كل ترف، وخاصة في هذا الزمان الذي يتضور فيه أكثر المسلمين جوعاً.

ولطالما كرر -رحمه الله- قولته المربية: "كلما نادى اللذائذ، فينبغي الإجابة: كأني أكلت".

وكان لا يستثني من حديثه أحداً، وكان يخاطب سائر شرائح المجتمع حتى المرضى منهم وأصحاب الابتلاء. ومن رسائله القيمة في هذا المضممار، ما عنونه تحت اسم "سلوة المرضى". ولنكتف بحكمة واحدة من حكمه التي دعا فيها هؤلاء بالصبر الجميل على ما ابتلوا به حيث يقول: "أيها المريض المسكين، لا تقلق، اصبر، فإن مرضك ليس علة لك، بل هو نوع من الدواء، ذلك لأن العمر رأس مال يتلاشى، إن لم يستثمر فسيضيع كل شيء، وبخاصة إذا انقضى بالراحة والغفلة، وهو يحث الخطأ إلى نهايته".

ثم ينتقل إلى مرض آخر ضرب أطنابه في الأمة وعصف بأخلاقها -كاللهو والفجور والمجون- التي

هي كفيلة بالقضاء على مروءة الناس، فبادر إلى بيان رأي الشرع فيها فقال: "نهت الشريعة الغراء عن اللهو وما يليه، فحرمت بعض آلات اللهو وأباحت أخرى، بمعنى أن الآلة التي تؤثر تأثيراً حزيناً حزنًا قرآنياً لا تضر، بينما إن أثرت في الإنسان تأثيراً يتيماً، وهيجت شوقاً نفسانياً تحرم الآلة، تتبدل هذه الحالة حسب الأشخاص والناس ليسوا سواء".

ثم ينتقل تارة إلى هؤلاء العاطلين المتقاعسين عن العمل والكسب الطيب، حيث عد عطالتهم نوعاً من الموت: "إن أشد الناس شقاء واضطراباً وضيئاً، هو العاطل عن العمل، لأن العطل هو عدم ضمن الوجود، أي موت ضمن حياة، أما السعي فهو حياة الوجود ويقظة الحياة". ومن خلال ما تم تقديمه عن الأمراض التي تثبط العزائم، وتنخر القوى، وتجعل من المجتمع مجتمعاً خاملاً كسولاً لا يقوى على تغيير ما هو عليه من حياة الذل والهوان، نلاحظ كيف حاول الأستاذ -بكل ما أوتي من قوة- تغيير هذا الخلل، وذلك بالرفع من المعنويات، وبالتوجيه إلى أسلم الطرق المؤدية إلى بر الأمان.

٤- دعوته إلى تحكيم الشريعة: دعا الأستاذ النورسي إلى بعث الفكر الإسلامي من جديد، وتجديد علوم الشريعة، لأنه لا خلاص من ظلم النفس وشرها إلا بالاعتماد على الإسلام والتمسك بحبل الله المتين الذي هو القرآن الكريم، مبيناً فضل الإسلام على العالمين، وكيف كان يعيش الإنسان قبل مجيء الإسلام، وكيف أصبح يعيش بعده.

ومن المسائل العجيبة في حياة هذا الرجل المجاهد، والتي لا تترك لمن درس سيرته إلا أن يعجب بشخصيته، وبكبير ثقته بخالقه، وبسمو إيمانه؛ حيث إنه في يوم من الأيام اعتقل، وفي المحكمة سأله الحاكم: "سمعت أنك من المطالبين بأحكام الشريعة الإسلامية"، فأجاب: "لو أن لي ألف نفس، لما ترددت بقدائها في سبيل حقيقة واحدة وحكم واحد من أحكام الشريعة؛ إنها طريق السعادة والعدالة والفضيلة المحضة".

وكان همه في هذه الفترة، هو بعث روح الدين الإسلامي، والرد على من وضعوا نصب أعينهم إبعاد

الشريعة عن الحياة، وغرتهم الحياة الأوروبية ببهرجها.

٥- العلماء: أولى العلماء عناية كبيرة، لأنهم موجّهو هذه الأمة، فإن كانوا من العاملين المخلصين المضحين، ظهرت ثمرة تضحياتهم وذلك بصالح المجتمع ورقية، وإن كان العكس، كانت النتائج وخيمة تعود بالضرر على الجميع. وقد علم واشتهر أن النبي ذم في غير ما موضع من كان هذا حاله؛ حيث قال: "من كتم علماً، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من النار". ولهذا فالنورسي كلما أتاحت الفرصة، كان يعرفهم بواجبهم اتجاه المدد الإلحادي، ويحذرهم من الركون إلى الظالمين، ويحذرهم كذلك من انتقاد بعضهم بعضاً قصد التشهير، لأن المستفيد من تناحرهم إنما هم الملاحدة، وطالهم أن يكونوا قدوة للناس، وشكر العاملين منهم.

٦- رجال الحكم: لم يكن النورسي منعزلاً عن أصحاب الإدارة، وسيرة حياته تحكي لنا عن لقائه السلطان عبد الحميد الثاني، والسلطان محمد رشاد وغيرهما كثير... كان يلتقي بعضهم ويراسل البعض الآخر، ويخاطب ويحاضر أمام آخرين. كان يطالبهم بحقوق الأمة عليهم، ويذكرهم بواجبهم تجاه الدين والأمة والوطن. كان يلين أحياناً - كما في رسالته إلى السلطان عبد الحميد وغيره - وكان يشدد أحياناً، خاصة مع الملاحدة. هذا باختصار بعض ملامح خطته في التغيير والإصلاح، التي ما تقاعس في بثها ونشرها في المجتمع قصد الاستفادة منها، حتى تكون نوراً يضيء الطريق لكل واحد من أبناء مجتمعه.

عاصر بديع الزمان سعيد النورسي هذه الفترة - التي شاع فيها الجهل والفقر والتخلف - ووعى الداء، فتسلح بالعلم والإيمان والإخلاص، ثم انطلق يدعو في المدن والقرى؛ حيث قابل السلاطين والوزراء ورجال الحكم والإدارة، يعرفهم بواجبهم تجاه الأمة والوطن ويطالبهم بالإصلاح، ثم دعا أبناء الشعب إلى اليقظة من الذل الذي غطى حياتهم حتى صار مألوفاً عندهم، حيث يقول في هذا الصدد: "في خضم التيارات الرهيبة، والحوادث المزلزلة للحياة والعالم، ينبغي أن يكون الإنسان على ثبات وصلابة لا تحد بحدود، وضبط

للنفس لا نهاية له، واستعداد للتضحية لا منتهى لها".

خاتمة

لقد حقق بديع الزمان سعيد النورسي نتائج جيدة من خلال مواعظه ورسائله وخطبه، حتى أفادت من كان في غفلة وأحييت قلوباً ماتت رغم المعوقات التي كانت تواجهه من سجون ومنافٍ ومعتقلات؛ ثمانية وعشرين عامًا لا غير، قضاها سجيناً ومنفياً بعيداً عن الناس وعن تلاميذه. ولهذا لم يتم له من الوسائل إلا النزر اليسير للتبشير بدعوته الإصلاحية. وقد استثمر الأستاذ النورسي كل الوسائل المتاحة من محاضرات، وكتابة في الصحف، إلى تأليف رسائل النور التي كانت - وما تزال - دروساً قرآنية توافق أفهام هذا العصر، وكانت كل رسالة منها هي سعيد النورسي نفسه.

ورغم كل الجهود، إلا أنه لا بد لكل نظرية تغييرية، من موارد بشرية بأعدادها ونوعيتها، وإلى الخبرات اللازمة والتقنية المكافئة، وإلى الوقت الكافي لعملية التغيير، وإلى المكان الصالح والجهاز لتلك العملية. وهذه كلها لم تكن متوفرة لدى بديع الزمان سعيد النورسي لطبيعة الظروف القاسية التي كان يعيشها، والتي فرضها عليه أعداء الإسلام. إن النورسي استطاع - بحق - تحويل أحاسيس اليأس والإحباط إلى مشاعر إيجابية بناة، واستطاع تعبئتهم تعبئة نفسية سليمة، وولّد لديهم طاقة جديدة يحدوها الأمل بمستقبل أفضل. ■

(٤) كاتب وباحث مغربي.

المراجع

(١) الكلمات، لبديع الزمان سعيد النورسي، ترجمة: إحسان قاسم الصالحي، دار النيل للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٨.

(٢) منهج الإصلاح والتغيير عند بديع الزمان النورسي، لعبد الله محمود الطنطاوي، الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٧.

(٣) ذكريات عن سعيد النورسي، لأسيد إحسان قاسم.

(٤) بديع الزمان سعيد النورسي.. عصره ودعوته، للدكتور فرج محمد الوصيف، دار نور الإسلام، مصر، ١٩٩٦.

(٥) مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان، لبديع الزمان النورسي، دار سوزلز للنشر، تركيا، ٢٠١٢.

إذا صَفَّقَ لك الشعب وباسمك هتف، فلا تغتَرَّ. وإياك أن تحسب أن ذلك علامة قبولك في عالم الغيب. كن حذرًا، ولا تدع المديح يخرجك عن طورك، فتمشي في الأرض مرحًا زاهيًا مزهوًا؛ فالأيام قَلْبٌ، والليالي حُبالي، لربما أتتك بالأحزان، وأغرقتك بالدموع.

الموازين

العناصر اللازمة لفهم الواقع

استعرضنا في مقالاتنا السابقة مفهوم التوازن الفكري، وآليات التوازن الفكري، والعقل والوحي كطرق

لإحداث نسبة بين التصورات، أما في مقالنا هذا نستعرض العناصر اللازمة لفهم الواقع، ويمكن القول إن فهم الواقع يحتاج:

أولاً: إلى الوعي بتاريخ المجتمع الفكري، وهو تاريخ تشارك في تكوينه لدى كل الأمم؛ جذورها العرقية، وبنيتها الاجتماعية، ومصادرها الدينية، ومراحلها الاقتصادية والسياسية في كل ما مر عليها من أعصار، وعدم استكمال ذلك في معرفة تاريخ الأمة الفكري، سيؤدي حتمًا إلى معرفة مشوهة بهذا التاريخ، وإلى استنتاج مغلوط لواقع الفكري.

ثانيًا: إلى تصور صحيح لما يحيط بالأمة من مخاطر؛

ليس في المطالبة بفهم الواقع تضييع للنصوص أو تضييق عليها، بل إن في فهم الواقع تنزيلاً للنصوص في منازلها الصحيحة، وهذا هو حقيقة ما يغيظ أعداء نصوص الوحي أن يستخدم النص في موضعه المناسب له.

حراه

﴿وَابْتُلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (النساء: ٦).

وعلى ذلك أمثلة كثيرة في سائر أبواب الفقه، أما أن يكون العرف دليلاً ابتداءً، فهذا ما لم يقل به أحد. وكذلك العادة، لا تحل حراماً ولا تحرم حلالاً، بل هي موضع لتنزل سائر الأحكام عليها، فإذا حكمنا بموجب النص بإباحتها، جعلناها حكماً في فهم تصرفات المتعاقدين ونياتهم، كما لو ادعى أحدهم على زيد ألف ريال، وأقر زيد الألف وادعى أنها هبة بقرينة أن الرجل أعطاها إياه ليلة عرسه -ومن عادة الناس أن يعطوا مثل هذا المبلغ إعانة على العرس- فإننا نقبل دعوى زيد الهبة بقرينة العادة، وهذا بخلاف ما لو كان المبلغ المدعى به عشرين ألفاً، فإن زعم زيد أنها هبة، لا يُقبل؛ لأنه لا يجري في عوائد الناس هبة مثل هذا المبلغ ليلة العرس.

أما تغير الفتوى بتغير الأزمان والأمكنة، فذلك متعلق بالفتاوى التي مستندتها العرف والعادة، على النحو الذي قدمت في المثالين السابقين، فإذا حكمنا على الزوج بنفقة زوجته ألف ريال في الشهر في هذه البلاد، فإننا نحكم بربع هذا المبلغ في بلد آخر، وإذا حكمنا بدفع العوض نقداً في بلد، فقد نحكم بدفع العوض عيناً في بلد آخر تبعاً للعرف وعوائد الناس. فيبقى الحظ الأوفر والنصيب الأكمل في استنباط الأحكام، إلى النصوص المحكمة، كتاباً وسنة، وما ينبثق عنهما من أدلة كالإجماع والقياس.

وفي هذا الصدد أذكر مقاصد الشريعة، فقد كثر

لأن المبالغة في تقدير الأخطار، إما أن توقع في اليأس والتشنج والاضطراب، وإما أن توقع في المبالغة في التعبئة لهذه الأخطار، وكلا الأمرين ينحيان الفكر بعيداً عن استيعاب الحقيقة والحكم بها.

ثالثاً: مما نحتاج إليه في فهم الواقع، معرفة حقيقة احتياجات الناس لتسيير شؤون حياتهم ومطالبهم الآنية وآمالهم وطموحاتهم المستقبلية، وعدم معرفة ذلك -على وجه الحقيقة- يمنع من تلبية المستقيم من هذه المطالب، كما يحول دون تصحيح المعوج منها ومعالجة أسباب الاعوجاج.

والذي أتصوره، هو أن هذه الأمور الثلاثة وما يتعلق بها، يُحكم عليها عند الأكثرين اعتماداً على الانطباعات التي طريقها النظرة الفردية المعتمدة على التجارب الشخصية والرؤية الخاصة، مع أن المسلك الصحيح هو استخدام الأسلوب العلمي عن طرق البحث العلمي والتتبع الاستقرائي بكل ما يمكن من طرق صحيحة وعصرية للاستقراء.

وليس في المطالبة بفهم الواقع تضييع للنصوص أو تضييق عليها، بل إن في فهم الواقع تنزيلاً للنصوص في منازلها الصحيحة، وهذا هو حقيقة ما يغيظ أعداء نصوص الوحي أن يستخدم النص في موضعه المناسب له. فالفقهاء قد اتخذوا العرف دليلاً، والعادة محكمة، وقالوا: تغير الفتوى بتغير الأمكنة والأزمان.

والعرف لا يستدل به إلا إذا كان عرفاً محكوماً عليه بالإباحة بمقتضى البراءة الأصلية، أو بنص خاص من الكتاب والسنة، وحين يحكم بإباحته فلا يستخرج منه على الوقائع حكم من الأحكام الخمسة المعروفة، بل يستخرج من العرف تقدير ما حكمت النصوص بإباحته، أو استحبابه، أو وجوبه، أو كراهته، أو تحريمه... كما حكم الشرع بلزوم النفقة على الوالد، وجعل تقدير المطلوب إنفاقه موكولاً للعرف، كما قال تعالى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ٧). وأباح لمتولي مال اليتيم أن يأكل منه، وترك تقدير ما يحل له للعرف، كما قال سبحانه:

الحديث حولها في أيامنا هذه، وألفت فيها البحوث المطولات، لكن الذي ينتهي إليه الباحث المنصف، أن مقاصد الشارع لا يجوز اتخاذها دليلاً ابتداءً، بمعنى أنه لا يجوز للمفتي أن يحكم بإباحة أمر أو تحريمه وليس له سند إلا ظنه أن إباحة هذا الأمر أو تحريمه تلي مقاصد الشارع من التشريع.

لأننا مع قولنا بأن أحكام الله تعالى معللة بالحكمة، فإننا لا نقطع بالحكمة إلا إذا كانت منصوطة، أما الحكم المستنبطه فهي مضمونة أو موهومة مستندتها التدبر المحض، أي أن مصدر القول بها هو العقل، ولا يجوز أن يكون العقل مصدرًا للأحكام مطلقًا.

نعم، نستفيد من علم المقاصد في تدبر أحكام الشريعة واستنباط الحكم منها كما نستفيد منها في الترجيح عند تعارض الأدلة في نفس المجتهد، لكن المقاصد وحدها ليست دليلاً حاكمًا؛ إذ هي ثابتة بالدليل، وما كان محتاجًا إلى دليل لا يكون دليلاً منفصلاً.

ويلتحق بذلك، القواعد الفقهية الكبرى كقاعدة "إذا ضاق الأمر اتسع"، و"المشقة تجلب التيسير"، فهي كلمات جامعة لمعاني عدد غير قليل من النصوص الشرعية، فهي بذلك أدلة باعتبار كونها جامعة لمعاني النصوص الشرعية. ومع ذلك لا يمكن أن يُستدل بها في مقابلة نص ذي دلالة خاصة، بل النصوص الخاصة مقدمة عليها، ويمكن استخدامها مع النصوص الخاصة كعضدات لها، لا سيما إذا كانت دلالة النص الخاص غير قطعية، أو في مجال الترجيح عند الاختلاف وتعادل الأدلة.

ولا يبعد عن المقاصد والقواعد، المصالح المرسله؛ فكل أمر محرم يريد أهل الهوى إباحته يلجأون إلى الحديث عن المصالح المرسله يردون بها النص، مع أن الأخذ بظني الدلالة من النصوص، أقوى من الأخذ بالمصالح المرسله. وقد بلغ من ترويجهم هذا المصطلح لإباحة ما حرم الله تعالى، أن صار مصطلحًا رائجًا - حتى على ألسنة العامة - لكثرة ما يستخدم لموافقة الأهواء في جميع وسائل الإعلام، وفي كتابات بعض المتأثرين بهذا التوجه من المشتهرين بالعمل الإسلامي. ومردّ الاغترار والاجترار على المصالح المرسله،

هو عدم القراءة في كتب أصول الفقه التي اعتنت بتحرير مسألة الاستدلال بالمصالح المرسله؛ لأن من تأمل في هذه الكتب، يعلم أن علماء الأمة قالوا بالمصلحة المرسله لا لتكون وسيلة لضرب النصوص أو إباحة المحرمات وتحريم المباحات، بل هو قول مراد به حفظ النصوص. ويتجلى ذلك من تعريف العلماء للمصلحة المرسله بأنها ما لم يرد من الشارع إلغاؤه أو اعتباره. هذا من حيث الإجمال، أما عند التحرير فإنهم يقولون إن المصلحة إما أن تكون متحققه أو مظنونه أو موهومة. وكذلك فإن الشارع لا يمكن أن يكون ترك أمرًا من الأمور دون اعتبار أو إلغاء؛ لأن اعتبار الشارع وإلغاؤه إما أن يرد على جنس هذا الأمر أو نوعه أو عينه، ولا يمكن أن يخرج فعل بشري عن أن يتعلق به حكم الشارع بأحد هذه الوجوه، فإذا ثبت إلغاء الشارع لجنس أمر أو نوعه، فلا يمكن أن يكون معتبرًا إلا إذا نص الشارع على عينه. وكذلك إذا ثبت اعتبار الشارع لجنس أمر أو نوعه، فلا يمكن أن نلغيه إلا بنص على عينه. وبذلك نعلم أن الاستدلال بالمصالح المرسله عند من يقول به، ليس استدلالاً منفصلاً عن النص، بل هو استدلال مقرب للنص ومبين له.

أما على قول من يرد الاستدلال بالمصالح المرسله - وهم جمهور العلماء - فيرون أن لا حاجة إلى استحداث دليل جديد، لا سيما والاستدلال به مبني على فرضية وجود ما لم يرد من الشرع اعتباره أو إلغاؤه.

وبذلك يثبت أن المصلحة المرسله سواء أقلنا بها أم رددناها، إنما هي شاهد على رعاية العلماء - رحمهم الله - للنصوص في جميع الأزمان، ولا يمكن استخدامه ذريعة لرد النصوص والعبث بالمحكمات تحت أي ذريعة. وحين نقول إن كل ما يرد على العباد من نوازل، لا بد أن نجد في الشرع ما يثبت أو يلغيه، فإننا نسير وفق ما تقدم الحديث عنه من ثبوت شمول الشريعة، بما يقطع الطريق أيضًا أمام من يحاول اتخاذ البراءة الأصلية دليلاً منفصلاً عن النصوص؛ ليتيح لهم فرصة الحكم بإباحة ما تزينه الأهواء سعيًا وراء "عصرنة" الدين.

وذلك أن البراءة الأصلية، أو الأصل في الأشياء

إن فهم الواقع يحتاج إلى تصور صحيح لما يحيط
بالأمة من مخاطر؛ لأن المبالغة في تقدير الأخطار،
إما أن توقع في اليأس والتشنج والاضطراب، وإما
أن توقع في المبالغة في التعبئة لهذه الأخطار،
وكلا الأمرين ينتيان الفكر بعيداً عن استيعاب
الحقيقة والحكم بها.

حراه

عليه الرجوع إلى من يفتيه في مسألته. كما أنه لا يجوز
له التنقل بين الأقوال تشهياً، بل لا بد للمقلد من التحري
فيمن يستفتيه، فإذا أفتاه فقد لزمته الفتوى.

وكذلك إذا اختلف المجتهدون، فليس للعامي
أن يرجح بين أقوالهم، وإنما يتحرى أقربهم للسنة،
وآخذهم بالورع، وألهمهم بالأدلة من الكتاب والسنة،
فيسأله، وإنما الترجيح مهمة المجتهد المنتصب للفتوى،
فإن واجبه أن ينظر في الأدلة ويرجح من الأقوال ما
كانت أدلته أقوى سنداً أو دلالة، ولا بأس على المجتهد
إن ترجح لديه خلاف قول الجمهور ما دام مستخدماً
لأدوات الترجيح الصحيحة التي نص عليها الأصوليون
في مصنفاتهم، وأولها موافقة المنصوص عن الله ورسوله.
وكون قول من الأقوال أنسب للعصر وأيسر على
الناس، لا يعد دليلاً قائماً بذاته تقاوم به النصوص أو يرجح
به بين أقوال أهل العلم، لكنه علامة يعرف بها المجتهد
صحة مذهبه؛ إذ إن التيسير على الخلق والرفق بالعباد،
من خصائص دين الإسلام، لكن لو صح الدليل في حكم
لم نتعرف نحن على وجه كونه يسراً ورفقاً على الناس،
فليس هذا مانعاً من الامتثال للحكم، كما أن عدم معرفتنا
بأوجه التيسير في هذا الحكم لا تعني عدم وجودها.
وأختتم بالقول: إن مما لا يحسن إغفاله من أسباب
الاضطراب الفكري، أمراض النفوس من الهوى واتباع
الشبهات والشهوات، والحسد، والحقد، والمنافسة
على الدنيا، والرياء، والتجيب إلى الأتباع أو الرؤساء...
فكل هذه الأمور وغيرها من أدواء النفوس، تحول دون
تحري الحق. ■

(*) أستاذ في أصول الفقه، جامعة أم القرى / المملكة العربية السعودية.

الإباحة، إنما هي مقيدة بالمنافع؛ ولذلك عبر كثير من
محققي أصول الفقه عن هذه القاعدة بقولهم: الأصل في
المنافع الإباحة، وفي المضار التحريم. فإذا تبيننا ذلك،
عرفنا أن الحكم بإباحة أمر بناء على عدم دليل يحرمه،
لا بد أن يُسبق بنظر آخر وهو تأمل هذا المحكوم عليه:
هل هو من المنافع أم من المضار؟ فإذا تحقق كونه
منفعة محضة، حكمنا بإباحته، وإن ثبت كونه مضره
محضة، قلنا بتحريمه، فإن تردد بين النفع والضرر،
حكمنا للغالب منهما.

إذن فالقول بأن الأصل في الأشياء الإباحة، قول
مقيد بالمنافع ولا يصح استخدامه هكذا مطلقاً؛ إذ من
الأشياء ما يكون الأصل فيها التحريم لا الإباحة، وهي
التي تعود بالضرر على النفس والمجتمع.

وحين نريد التعرف على المنافع والمضار، لا بد أن
تكون نصوص الشرع هادياً لنا في معرفة كُنه الأشياء؛ إذ
إن المنفعة والمضرة ليس قياسهما دنيوياً محضاً فتتجرد
العقول لتتهدي إليه، بل هو ديني أولاً، دنيوي ثانياً. فلا
بد للحكم بمنفعة أمر، من التحقق من كونه لا يعود على
دين العبد بالضرر مطلقاً، فإن عاد على الدين بالضرر،
فلا عبرة بما ينتج عنه من منافع دنيوية ولو كثرت. كما
أننا نقطع بأن ما يعود بالنفع على دين العبد ويعود
بالضرر على دينه، لا وجود له مطلقاً، وإن توهمه العبد
فليس حقيقة في نفس الأمر.

وما دنا نتحدث عن الاستدلال الصحيح والفاسد،
فلا يفوتنا الحديث عن الخلاف الفقهي، فهو في معزل
عن كل شيء يعد قضية وحده؛ إذ نرى كثيرين من دعاة
هذه الفكرة، يجعلون الخلاف في مسألة ما وحده مبرراً
للتخيار بين الأقوال في حكمها، ويرون أن مناط الاختيار
هو مناسبة الحكم المختار لظروف العصر وحاجة الناس
إليه، ولا عبرة عندهم بمدى قرب القول المختار لديهم
من النص أو بُعده عنه، فكون أحد العلماء قال بهذا
القول يعد عندهم شافعاً لاعتماده إذا كان متناسباً في
زعمهم مع حاجات العصر ومتطلباته.

ومن المعلوم عند علماء الأصول، أن العامي لا
يجوز له الترجيح بين أقوال المجتهدين، وإنما يجب



اختلاف الخلقة

واختلاف الوظيفة

فحين قال فرعون لموسى **الطَّلَاةُ**: ﴿فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى﴾ (طه: ٤٩-٥٠)،
 ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: ٥٠-٥١)،
 وهذه إضافة في غاية الأهمية، حيث تبين أن الله الخالق
 العظيم أعطى كيفية معينة لكل ما خلقه من المخلوقات،
 فأعطى لكل شيء خَلْقَهُ المناسب له ثم هدى.

فقه التأمل في الكون

وكذلك الشأن بين أمرنا بالتسبيح في قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ
 اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ (الأعلى: ١-٢)،
 بحسب نوعية تلك الخلقة، وبين قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي
 قَدَّرَ فَهَدَى﴾ (الأعلى: ٣)، وبناء على ذلك التقدير كانت
 الهداية لذلك المخلوق في اتجاه ما قُدِّرَ له تبعاً للخلقة
 التي خُلِقَ عليها وسَوِّيَ عليها.

وهذه نقطة في غاية الأهمية لفقه هذا الكون جملةً،
 وفقه ما هو قائم عليه، وما هو قائم به، وفقه ما يتجه إليه،
 وكيف ينبغي أن يدبّر أمره وأمر من فيه وما فيه، فذلك
 تابع لهذا التمايز في الخلقة.

يتضح للمتأمل الواعي أن اختلاف
 الخلقة تابع لاختلاف الوظيفة، وأن
 تمايز الخواص مُؤدّن بتمايز الاختصاص.

ي

فاختلاف طبيعة الخلقة تابع لاختلاف طبيعة الوظيفة،
 فالوظيفة - كما هو ثابت في علم الأحياء - هي التي
 تنشئ العضو المناسب؛ فبسبب حاجة الكائن الحي إلى
 وظيفة الشم، خُلِقَ له العضو الذي هو "الأنف". ولحاجة
 الكائن الحي أيضاً إلى الرؤية والإبصار، احتجنا إلى
 عضو العين. ولو افترضنا أن عضواً ما تعطلت وظيفته،
 فمعنى ذلك أن هذا العضو المتعطل قد انتهى وجوده
 وتوقف دوره.

فالعلاقة بين الوظيفة والخلقة علاقة تلازم، فالكيفية
 التي خُلِقَ عليها الخلق - إنساناً كان أو حيواناً، أو صنفاً
 معيناً من الإنسان، أو صنفاً من الحيوان أو النبات أو غير
 ذلك - إنما كانت تبعاً للوظيفة التي رُسمت لذلك الكائن
 الذي لها خُلِقَ.

والأصل أن العيب منفى، لأن الله تعالى منزه في هذا الكون عن أن يخلق شيئاً عبثاً. هذه الحقيقة يفقهها الربانيون أولو الأبواب الذين تأملوا بالبصيرة النورانية في آيات الاختلاف والتمايز، فهدوا لأن يقولوا: ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُجْحَانُكَ﴾ (آل عمران: ١٩١)، أي كل شيء خلق لوظيفة وحكمة. أما الذين لم يُرزقوا الفقه النابع من الإيمان بحكمة الاختلاف التكاملي، فيظنون في الاختلاف والتمايز ظن الباطل المؤدي للتصارع والإفساد، وتجريد الحياة من السمو والتكامل الزكي المبارك: ﴿ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (ص: ٢٧). والله ﷻ يرشدنا إلى هذا الأصل الكبير في آيات كثيرة، وفي سور كثيرة، وإن الثنائيات التي هي بمثابة المثاني، كثيرة في القرآن وبالأخص في قسم المفصل، والمفصل - على الأرجح - هو من بداية سورة "ق" إلى آخر القرآن الكريم.

المثاني والقرآن العظيم

كلما اتجهنا إلى نهاية المصحف الكريم، وجدنا هذه المثاني تظهر بجلاء وقوة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ (الليل: ١-٤). الزمن هو الزمن، وفي الزمن نهار، وفي الزمن ليل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾، وللليل وظيفة لتسكنوا فيه، وللنهار وظيفة تبعاً لطبيعته ولما خلق له كذلك، رغم أنهما معاً من جنس واحد هو جنس الزمن، فلليل وظيفة لتسكنوا فيه، وللنهار وظيفة لتبتغوا من فضل الله فيه، والوظيفة نفسها لها ظروف تحفُّ بها. فالكون كله يسكن في الليل في غياب ضوء الشمس، والكون كله يتحرك في وجود الضوء في النهار وإن لم نتحرك، ولا بد أن نتحرك.

فهذا النظام العام أسس به القرآن لحقيقة خلقية قادمة بعد: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ * وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ * وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾، فخلق الذكر كخلق الليل أو النهار، وخلق الأنثى كخلق الليل أو النهار، فهذا التمايز موجود رغم أن الجنس واحد وهو هذا الإنسان، وهذا

التمايز، نظراً لطبيعة اختلاف الدور والوظيفة أيضاً؛ لأن ما خلق له الذكر مخالف لما خلقت له الأنثى، وما خلق له الليل مخالف لما خلق له النهار في الآية، ومثلها: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا﴾ (الشمس: ١-٢)، مثل ذلك في الأرض والسماء.

إن الثنائيات المذكورة في القرآن العظيم، تتجه بصفة عامة في هذه الوجهة، لتبين أن التمايز في الكائنات، والاختلاف الذي قد يرى إلى حد التضاد، هو اختلاف التكامل الذي سببه اختلاف الوظائف - كما تقدم - فلا تضاد ولا تصارع، لكن تكامل في وحدة وتنوع داخل منظومة الحياة، فهو اختلاف داخل الائتلاف. والسعي شتى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ * إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ (الليل: ٣-٤)؛ يتجه اتجاهات مختلفة.

فهذا الأصل يؤسس لحقيقة غاية في الأهمية يصرح بها القرآن بدقة ووضوح حين يقول عن الذكر والأنثى وعن الرجال والنساء: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ (النساء: ٣٢)؛ فالنساء مفضلات على الرجال في جوانب، ولهن الخصوصية بحسب الخلق، هن مفضلات مرشحات في جوانب بعينها لا يحسنها الرجال ولا يطبقونها حتى ولو أرادوا. والرجال مفضلون في جوانب أيضاً يحسنونها ويطبقونها، ولا تطبقها النساء بحسب أصل النشأة والخلق، فلكلٍ منهما خلق وعمل خلق من أجله. فلو فقها هذا الأمر، لشعر كل واحد في موقعه بالاعتزاز في كونه خلق على هذه الهيئة التي هو عليها. فالأصل هو الرضا عن الخلق وعن الفطرة التي فطر الله عليها الإنسان؛ لأن تلك الفطرة تابعة لوظيفة لا يمكن أن تؤديها خلقة أخرى وفطرة أخرى. فلننقده هذا، فهو من أسس هذه النظرة الكلية الشاملة للمسألة الإنسانية بصفة عامة في هذا الكتاب. ■

(*) الأمين العام لمؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) / المغرب.



التكافل والتعايش بين النبات والحيوان

وهناك نوع آخر من التكافل الشائع بين النبات، وهو بين الفطر والنبات المزهري؛ حيث يقوم تكافل متين وعلاقة قوية بين الفطر وجذور بعض النباتات كأشجار البلوط، والصنوبر، ونبات الأوركيد. وأحياناً يتغلغل الفطر في كل أجزاء النبات، حتى إنه يصل إلى البذور، كما هي الحال في نبات "الخلنج" الذي ينمو بكثرة في الأراضي الجرداء بفضل تعاونه مع الفطر الذي يمدّه بما يحتاجه من ماء.

ومن أنواع التكافل، ما يحدث بين البكتريا العقدية ونبات الفول، والبرسيم، والعدس؛ حيث تتغلغل البكتريا في جذورها وتستمد غذاءها الكربوني منها، ثم تقوم بدورها بتحويل الأزوت الجوي إلى مركبات أزوتية عضوية مختلفة تعطي معظمها للنبات البقلي الذي تعيش فيه. وليست العقد البكتيرية مقصورة على جذور

أجرى العالم "دي باري" عام ١٨٦٦ دراسات على نبات الأشنّة (اللكنة) التي تلتصق بجذوع الأشجار وسقوف المنازل والصخور، حيث تبين أن هذا النبات يتكون من مشاركة تكافلية بين نباتين غير مزهرين هما الفطر والطحالب. وقد تكونت نتيجة لهذه المشاركة أجسام خاصة قائمة بذاتها وتعرف بـ"الأشن". فالأشنّة نبات يتركب من خلايا طحلبية خضراء محاطة بخيوط فطرية رقيقة. ويقوم الطحلب الأخضر المعرض للضوء، بتمثيل ثاني أكسيد الكربون الموجود بالهواء، وتكوين الغذاء الكربوني -والذي غالباً ما يزيد عن حاجته- فيخترن الزائد منه، ثم يقوم بإعطاء هذا الغذاء الفائض عن الحاجة للفطر، مقابل الاستفادة مما توفره خيوط هذا الفطر من ماء وأملاح -يمتصها من رطوبة الجو- تسد حاجة الطحلب إليها.



يتكون داخل الحشرات أجهزة خاصة تساعد البكتريا والخمائر على الانقسام والتكاثر. وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن الضوء المنبعث من بعض الحيوانات البحرية -مثل السيبيا وغيرها- يرجع إلى النباتات الفطرية التي تتكافل معها. وفي بعض الأحيان، تعد العلاقة بين النمل والنبات نموذجًا من التعايش، حيث يعيش نموذج من النمل في جنوبي أمريكا الجنوبية في سلاميات جذع السيسروبيا من الفصيلة التوتية، حامية النبات من اجتياح النمل الآكل للأوراق.

أما التكافل الداخلي بين نوعين مختلفين من الحيوانات، فمن أمثله بعض الأنواع من حيوان "الأنفيوزوريا" (أوليات هُديبية)؛ ويعيش في القناة الهضمية لأنواع من النمل الأبيض تتغذى على الأخشاب. والأنفيوزوريا من الضرورات الحيوية له، إذ سرعان ما ينفق إذا أبعدت عنه. فهي تقوم بهضم مادة الخشب التي يتغذى عليها هذا الحيوان، ولا يستطيع القيام بهضمها حيوان آخر أكثر رقيًا. وكذلك الحيوانات العاشبات التي تؤوي في المعوي الأعور البكتريا ملتهمات الأخشاب التي تقوم بتفكيك المركبات السليلوزية.

التكافل الخارجي

أما التكافل الخارجي أو التعايش والمعايشة؛ فيوجد عند كثير من حيوانات الشعاب المرجانية، ولعل أبرز مثال له هو معايشة الأنيمونات (شقائق البحر) مع بعض أنواع

البقول فقط، بل وجدت أيضًا في نباتات أخرى تنتمي إلى فصائل مختلفة مثل "الكازورينا"، ونبات "سيكاس". ومن التكافل ما يحدث بين الحيوان والنبات، كما يحدث عند بعض الحيوانات التي تحمل في أجسامها نباتًا من الطحلب الخضري الخلية الواحدة "الزوكورولا". وفي هذه الحالة يستثمر الطحلب ثاني أكسيد الكربون المتخلف، من جسم الحيوان، ويتنفع به في عملية التمثيل الضوئي، ويستفيد الحيوان بدوره من الأوكسجين الذي ينتجه شريكه الصغير في هذه العملية، كما يستفيد أيضًا من مركبات الكربون التي يكونها الطحلب. وبعض هذه الحيوانات تكون ذات لون أخضر لما يعيش فيها من طحالب، مثل الحيوان الهُدبي الذي يسمى "ستتور" وهو من الأوليات (توجد أوليات خضراء أخرى لكن لوجود مادة الكلوروفيل فيها) مثل اليوجلينا، والفورتسلا الخضراء، واسفنج المياه العذبة، والهيدرا الخضراء، وبعض شقائق البحر، ومعظم الشعاب المرجانية، والديدان المفلطة (تربلاريا)، وبعض الحيوانات الرخوة. وتستطيع هذه الحيوانات البقاء على قيد الحياة وقتًا طويلاً دون أن تحصل على معونة غذائية خارجية، مكنتها بما تعتمد عليه من غذاء يمدّها به كفيلاً الأصغر.

وعند بعض الحشرات، وخاصة التي تتغذى على الأخشاب الجافة وما شابهها. تعيش في الخلايا المبطنة لقناة الهضم -عند نحو سبع رتب من الحشرات- بكتريا وخمائر، تساعد الحشرة على عملية هضم وتفكيك المركبات السليلوزية. هذه البكتريا والخمائر تتصل ببويضات الحشرات قبل الفقس، أو في حالات أخرى





الأسماك. تتكون هذه الأنيمونات من جسم أسطواني أجوف رقيق الجدار يلتصق بالصخور، وله زوائد جوفاء حساسة تحتوي على خلايا لاسعة وتفرز مادة لزجة يساعدها على قنص فرائسها الصغيرة. وتُتميّز الأسماك الصغيرة هذه الأنيمونات، بغريزتها فتبتعد عنها انقاء شرها، إلا بضعة أنواع توثقت بينها وبين هذه الأنيمونات صلات طيبة، حتى أصبحت تحتمي بها وتأوي إليها، كما لا تحاول الأنيمونات إيذاءها أيضًا. وفي مقابل ذلك تردّ هذه الأسماك الجميل بجلب الفرائس التي قد تسقط بعيدًا عن متناول هذا الصديق المُقعد، ليتغذى بها. وليس أدل على هذه العلاقة التكافلية الوثيقة من تلك التي بين "السّمك المهرج" ونوع من "شقائق النعمان"؛ حيث تحمي السمكة الشقائق من الأسماك التي تتغذى عليها، وبالمقابل تحمي الشقائق بلواسعها السمكة من الكائنات التي تفترسها. وهناك "السرطان الناسك" الذي يأوي إلى محارة خالية ليحتمي بها من أعدائه، وإذا ضايقه العدو، ينتقل لمحارة أخرى أكبر حجمًا، وبين المحارتين، يعمد للتكفل مع بعض الأنيمونات الصغيرة فتغطي وتلتصق بظهر المحارة حامية السرطان من الأعداء، وبالمقابل تنتقل الأنيمونات من مكان إلى آخر، وعن طريق هذه التنقلات يسهل عليها البحث عن قوتها في العديد من الأماكن. وتتكافل "سمكة الغوبي" مع القريدس (الروبيان)، حيث يقوم الأخير بحفر وتنظيف الجحر الذي يعيشان به معًا في الرمل، بينما تقوم سمكة الغوبي بلمس القريدس بذيلها، تحذيرًا له من الأعداء، فيسرعان معًا إلى داخل الجحر.

ويعتبر البعض أن طرائق التأبير أو التلقيح الحشري لبعض النباتات المغلفات البذور، نموذجًا من التعايش؛ إذ تتغذى الحشرة بالرحيق الزهري، وبالطلع الذي تنقله من سداة إلى أخرى، ومن ميسم إلى آخر، محققة بذلك استمرارية الحياة للأنواع حشرية التلقيح. كما أن التخصصية، بالغة الدقة بين الحشرة ومضيفها النباتي إلى حد وجود نماذج من التكيف بين النبات والحشرات التي يستضيفها؛ فالمريمية تزود بدواسة تقلب المحتوى المثبري فوق ظهر الحشرة، وزهرة السحلب تشبه

أنثى الحشرة التي تجذب الذكور. وتزور زهرة نبات الفيكتوريا الملكية التي تتفتح ليلاً، حشرة من غمديات الأجنحة، حيث تطبق الزهرة عليها في النهار وتحرقها في المساء، محملة بطلع الزهرة لتنقله إلى زهرة أخرى. وهناك نوع آخر من التأبير بواسطة العصافير والخفافيش والحلزون؛ وترتاد زهرة اليوكا حشرة تضع يرقاتها في الزهرة محققة التأبير المختلط. وفي التين تقوم بالتأبير حشرة البلاستوفاغة من نصفيات الأجنحة من زمرة الزنابير الصغيرة.

هناك أشكال متنوعة من المنافع المتبادلة و"التكافل التنظيفي والغذائي والحمايى والطبي"؛ حيث توجد أسماك وطيور للتنظيف والحماية، تتغذى على الحشرات والفطريات، والطفيليات، والفضلات التي تعيش على جسم الشريك الآخر. فمن هذه الأمثلة ما يحدث بين التمساح وصديقه طائر "القطقاط" الذي يلازمه دومًا؛ هابطًا بين فكيه لينظف أسنانه، كأفضل ما يكون التنظيف والعناية بالأسنان؛ حيث يمكث التمساح هادئًا مطمئنًا، حريصًا على أن لا يطبق فكيه القويين على صديقه الصغير، ويصفق هذا الطائر بجناحيه منذرًا إذا ما

الكافية والحصانة اللازمة ضد هجوم الأسماك الكبيرة عليها. وقد شوهدت هذه الأسماك وهي تنظف -في أمان وهدوء- أسماكاً مفترسة، ومنها الحنكليس، وسمكة العقرب السامة، وخلال ست ساعات من الملاحظة تم إحصاء نحو ٣٠٠ سمكة تؤم "العيادة" ثم تغادرها نظيفة من الطفيليات المتعلقة بجسمها، وهو عدد كبير يعكس مدى المهمة الملقاة على عاتق هذه الأسماك في حفظ أنواع عديدة من الأمراض والنفوق والانقراض. وهناك سمكة المهرج (وطولها ما بين ٦-١٢ سم حسب النوع) تعيش في البحر الأحمر والمحيط الهندي والهادي، وكذلك في صخور حاجز أستراليا العظيم. كما تعيش هذه السمكة على شكل أزواج داخل شقائق النعمان، وتتبعها مجموعة صغيرة من الأسماك تتميز بألوانها الزاهية وتسمى بأسماك الأنسة. كما تجذب إلى مجساته أسماكاً أخرى، وتطرد عنه أسماك الفراشة التي تفترس الشقائق. هذا وإن العلاقة بين الأسماك المهرجة وشقائق البحر ليست علاقة حماية فقط، بل علاقة طعام ونظافة أيضاً؛ إذ تقوم أسماك المهرج برحلات غير بعيدة إلى خارج مجسات الشقائق، وتسرع سمكة المهرج إلى مخبئها عندما تقوم سمكة كبيرة بمطاردتها، فتصيها الشقيقة بلسعات قاتلة. وبعد فراغ الشقيقة من أكلها تتغذى سمكة المهرج على الفضلات والبقايا، ثم تنظف المكان. إن أمثلة التكافل والتعاون بين الكائنات الحية عديدة ومتنوعة ومدهشة، والتكافل الطبي من أبرز هذه الأمثلة.

ويرى الكثير أن التكافل بين هذه الكائنات يفند نظرية التطور... فالتكافل الإجباري بين كائنين لا يعيش أحدهما دون الآخر، لا بد وأن يأتيان إلى الوجود معاً ودون تطور أو ارتقاء نوع لنوع، كما أن التكافل والتعاون بين الكائنات الحية يخالف فكرة الصراع من أجل البقاء التي هي من أسس تلك النظرية، ويبقى قوله تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (لقمان: ١١). ■

(*) كاتب وأكاديمي / مصر.



رأى عدواً أو أحس بخطر، لينساب التمساح إلى الماء مباشرة. ونرى كذلك من هذه المنفعة المتبادلة، بين بعض الطيور والثدييات الكبيرة مثل الجاموس ووحيد القرن؛ حيث تعمل الطيور هذه على تخليص الثدييات من الحشرات والطفيليات بشكل دائم.

التكافل الطبي

كثيرة هي الشواهد على تبادل المنفعة والتكافل الطبي بين أجناس من الكائنات الحية. وفي هذا المجال يُشار إلى التكافل التنظيفي والغذائي والحماي؛ حيث توجد حيوانات وطيور وأسماك تعمل على تنظيف بقايا غذاء شريكها.

وفي جنوب المحيط الهادي، توجد أسماك صغيرة بكثرة (طولها نحو عشرة سنتيمترات) مارست عملية الطبابة؛ ويوجد من يمارس تلك الوظيفة في بحار العالم، نحو ٣٣ نوعاً من الأسماك، وهي تستوطن الصخور عيادات ثابتة أو متنقلة لها، أو تقوم بزيارات منزلية تؤمها شتى أنواع الأسماك طلباً للشفاء من الطفيليات والإصابات. فالسمكة الطبية تنال ما يكفيها من غذاء مجاني جراء قيامها بالتنظيف، كما تتمتع بالحماية

الإنسان محور التربية والإصلاح رؤية في فكرة الأستاذ فتح الله كولن

جهود العلماء والدعاة والمصلحين على خطاه وهدية ﷺ، كلما ابتعد الإنسان عن هذا النموذج احتاج إلى من يعيده إليه ويقومه عليه، ولذلك كانت حاجتنا، لأن يبعث الله على رأس كل مائة عام من يجدد لهذه الأمة دينها. والتجديد ليس في الدين أحكاماً وقيماً ومبادئ، ولكنه تجديد في هذا الإنسان الحامل لهذه القيم والمبادئ والأحكام. إنه تجديد عميق وتعميق هذه الصبغة الإلهية؛ ﴿صَبَّغَةَ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صَبْغَةً﴾ (البقرة: ١٣٨).

وفي هذا السياق، يأتي دور العلمين المصلحين المجددين؛ أمثال الشيخ الطاهر بن عاشور، والأستاذ المفكر فتح الله كولن. وإذا كان لكل علم منهما تخصصه ومجاله واهتمامه وأفقهِ وعلمه وفكره، إلا أن القاسم الأكبر الجامع بينهما، هو الإنسان في تجديد دينه وفاعليته. لذلك كانت الروح التي تسري في أعمالهما

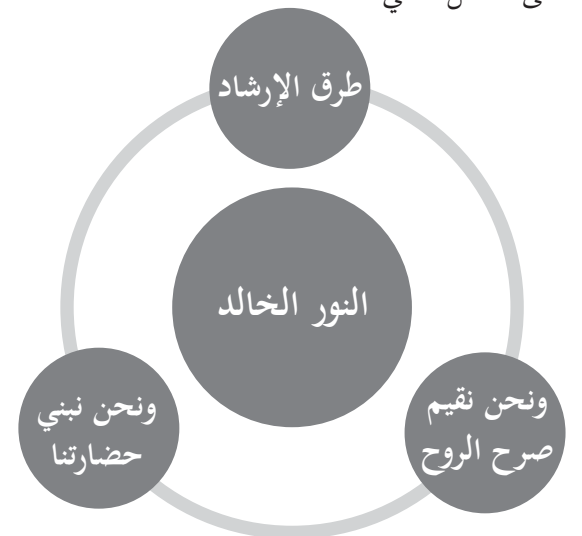
ي يعدُّ الإنسان مركز الحياة فيما تدور عليه الأحداث وتشكل به المواقف، ويسعى كثير من المفكرين والمثقفين في جميع جهودهم ونشاطاتهم، إلى ربطها بالإنسان محور الحياة. وليس ذلك بغريب، فإن الأنبياء منذ بعث الله آدم ﷺ، قد كانت جهودهم متجهة نحو الإنسان؛ في بنائه وإعداده وتكوينه وتربيته وإصلاحه وتقويم سلوكه ومعالجة انحرافات... وكيف لا يكون ذلك والإنسان هو خليفة الله في الأرض، حمّله الأمانة، وأناط به التكليف، فلا بد من الاهتمام به، والسعي نحو تحقيق قدرته وصلاحه للقيام بهذه الأعباء.

وقد امتدت هذه الجهود واتصلت بخاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﷺ، حيث استطاع بناء جيل نموذجي أسسه وفق هذه المنطلقات، وأعدّه ليكون النموذج الذي يمثّل الإنسان المستخلف. وامتدت

ي

وتأجتهما، هي تلك الروح البانية للإنسان، الناهضة به من رقدة الغفلة إلى نهضة الإيمان، ومن ظلمة الجهل إلى نور العلم، ومن سلطة الخمول والكسل إلى قوة النشاط والفاعلية، ومن تخمة العبيثية والسلبية إلى قمة الجدية والانبعائية، ومن جبن الهمة إلى علو الهمم وسموها. ولسنا هنا بصدد المقارنة أو الموازنة بين العلمين، لنقول إن فتح الله كولين عاش زمانه بهوموم ومشاكله فصنع لها الحلول النظرية والعملية، وأن الطاهر بن عاشور ضرب في جذور التراث الإسلامي فعاش فيه وبعثه من جديد ليعيش فيه جيل اليوم من بعده؛ فمن حيث أحسن تلامذة الأستاذ "كولين" ظلم الشيخ الطاهر. لكننا نريد التأكيد على حقيقة واضحة جلية ظهرت في جهود الشيخ الطاهر، وتعمقت وتجدرت وتمكنت عند الأستاذ فتح الله كولين؛ تلكم هي صناعة الإنسان الخليفة. أكد الأستاذ فتح الله كولين أن أهم مشكلة في المدنية المعاصرة، هي مشكلة تعليم الإنسان وتربيته وإعداده. ولأجل ذلك كان نتاجه العلمي والعملية منصباً في هذا الجانب، لتحقيق نظريته الأساسية لهذا الإنسان محور الحياة.

وإذا أردنا أن نفهم تصور الأستاذ حول هذه القضية، فلا سبيل -بعد قراءة نتاجه وجهده- إلا بالتركيز على ثلاثية فكره وعلمه، مضيفاً إليها إلهامه من كتاب "النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية"، ويمكن رسمها على الشكل التالي:



وأقصد من ذلك، لفت انتباه الباحثين والدارسين لإعادة النظر في كتابات الأستاذ "كولين"، وتشكيل أبعادها الموضوعية، ليسهل تقريبها للعالم وتمكينها في نفوس الناس، فهم اليوم بحاجة إليها حاجة الماء والطعام. ونظرتي في كتبه عموماً وكتبه هذه تحديداً، هي ما أوحى لي بعنوان هذه المقالة التي قصدت منها أيضاً تقريب تصوره عن الإنسان محور التربية والإصلاح. ومن الضروري الحديث عن التربية وعن الإصلاح، هذين العنوانين الرئيسيين اللذين يمثلان صلة فكر الأستاذ بالإنسان. لكن الأمر لا يتسع هنا، لذلك سأقتصر في حديثي هنا على أمور ثلاثة:

١- الإنسان في عالم الأستاذ كولين

يقدم "كولين" هنا صوراً أو نماذج أربع للإنسان: أ- الإنسان الجديد؛ وهو من يسعى جاهداً أن يتربى بهويته الذاتية، ويتزين بمقوماته التاريخية. الإنسان الجديد يملك طاقة بناءً وروحاً مؤسساً، يتعد عن النمطية بشدة. يعرف كيف يجدد نفسه مع الحفاظ على جوهره، ويعرف كيف يروض الأحداث فتأتي لأمره طائعة خاضعة. يسبق عصره فيسير أمام التاريخ قُدماً على الدوام؛ بهمة تتجاوز حدود إرادته، وشوق عارم، وحب عميق، واعتماد بالله عظيم.

ب- الإنسان المثالي أو الكامل؛ وهو المتحلّي بصفات ملائكية، هو بطل البصيرة وفارس الإدراك، هو المتنبه إلى الحقيقة الكبرى التي عبّرت عنها الآية الكريمة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤). هو المدرك يقيناً أن الباري ﷻ قد خلقه في أجمل الأشكال المادية، وسوّاه في أروع الصور المعنوية، فكان بديع الصنع، متفرد الهيئة، تصدق عليه حقيقة "أحسن تقويم" بكل ما يعنيه التعبير.

ومن أبرز سمات الإنسان المثالي -كما يرى كولين- أن عقله يموج موج الدوامه بألف سؤال وسؤال، ويواصل التنقيب عن الحقيقة بنهم عجيب، ويغذ السير قُدماً لكي يفك شفرة ألف لغز ولغز؛ فتراه متوقّد الذهن، متوثّب البحث عن أجوبة للأسئلة الكونية الكبرى: ما الحياة؟ وما الموت؟ وما حقيقة الكون؟ وما علاقته

بالإنسان؟ وما معنى العبودية لله؟ وماذا تعني الطاعة له؟ وما الإثم؟ وما الثواب؟ وما حقيقة المحن التي تلم بالإنسان؟ ولماذا تلمّ به؟.. في الوقت ذاته، تراه مشتعل الفؤاد قد شيد من بوارق الحكمة التي لا تكفّ عن الويض في سماء وجدانه، ومن نسمات الإلهام التي لا تنقطع عن تجلياتها في أرجاء روجه، صروحاً نورانية شامخة، ثم سما حتى بلغ قمة تلك الصروح فأبصر كنه الأشياء، واكتشف ملكوتها، وأدرك ما طوي منها وراء ستار المنظور، فاتجه إلى المصدر الحقيقي للروح، يغمره الحبّ وتهزّه الهيبة نتيجة تقلبه بين مدّ الحيرة وجزر الانبهار، ثم ذاب في نشوة من السكنينة لا توصف، ولذة من الطمأنينة تسمو على كل تعبير.

ج- الإنسان الداعية؛ ويشبه كولين الداعية كلوحة اتجاه ثابتة، يعلّم الصدق والصواب دائماً. فكل من يعاين حياته ومعايشته يرى الصدق بسهولة ويجده على سيماه. والداعي المسلم الصادق يظهر أثر صدقه في وجهه وصوته. ولا شك أن ظهور أثر الصدق في وجه الداعي وصوته، يؤثر في المخاطب ويحمّله ذلك على قبول قوله واحترامه، إلا إذا كان عمى القلب قد بلغ منه مبلغاً عظيماً.

إن الذي يريد أن يكون داعية فلا بد أن يلتزم بهذه القاعدة: أن يحيا المبلّغ بما يبلّغ، ويبلّغ بما يحيا، ذلك لأنه على الصراط السوي للمؤمن الحقيقي. والمؤمن الحقيقي يعني مَنْ بلغ إلى تكامل الظاهر والباطن، فلا تخالف بين الظاهر والباطن في هذا المؤمن. أما الحياة الازدواجية فهي صفة النفاق.

د- إنسان الفكر والحركة؛ إن أهم شيء وأشدّه ضرورة في حياتنا هو الحركة، فمن الضروري أن نتحرك على الدوام في ظروف القاهرة، نضع أنفسنا تحت ثقلها بأنفسنا لنحمل فوق ظهورنا واجبات ونفتح صدورنا أمام معضلات الحركة المستمرة والفكر المستمر... ومهما ضحينا في هذا السبيل، فإن لم نتحرك وفقاً لهويتنا الذاتية الأصلية، فسندخل في تأثير الدوامات الفكرية والبرنامجية لأموح هجمات الآخرين وأعمالهم الحركية، ونضطر إلى تمثّل فصول حركاتهم. والإسلام

كان وما يزال حيويّاً وحركيّاً من كل جهة، كان يتوسع وينبسط في واقع الحياة ولم يؤجل النظر إلى أي مشكلة واجهته، كان يدخل أضيّق المعابر في الحياة الفردية والعائلية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية.

٢- الركائز التي تقوم عليها تربية الإنسان

وفي جانب الركائز التي تقوم عليها تربية الإنسان عند الأستاذ فتح الله كولين يمكن أن نجملها فيما يلي:
أ- الإيمان الصادق بالله.

ب- العبادة والذكر؛ والعبادة المقصودة تلك التي يتوجه بها الإنسان لله صادقاً مخلصاً، ومعناها قضاء الحياة بامثال أوامر الله وتكاليفه. والذكر نوعان: الأول وجداني؛ أي أن يذكر الله بجميع أركان الوجدان. والثاني بدني؛ أي تحويل الأوامر الإلهية ونواهيها إلى حياة تمارس وتعاش.

ج- العمل والعطاء والبذل؛ وأساسه التضحية والصبر.

د- الأخلاق بكل دالاتها وقيمها؛ إذ هي ميزان الإنسان.

٣- معوقات تربية الإنسان

والذي جعلناه في معوقات تربية الإنسان وسبل مواجهتها:

أ- التقليد والتبعية؛ ويقوم بالرجوع إلى الذات الإيماني والاعتزاز بالإسلام.

ب- الغربة والانفصال عن الهوية؛ ويقوم بالرجوع إلى الذات الإيماني والاعتزاز بالإسلام.

ج- الكسل وحب الراحة؛ ويقوم بالهمة والعزيمة.

د- الأنانية؛ وتقوم بالعمل والإنجاز. وهذه المعالجات تأتي تحت إطار "القابلية للإحياء والانبعاث".

إذن، الأستاذ فتح الله كولين، يعطي هذا السر لتحويل الإنسان إلى كائن فاعل إيجابي، فيقول: "لا نقضي على حب الشهرة والمنصب الذي أودعه الله في الإنسان إلا عن طريق مشروع" فكانت الخدمة. ■

(٤) كلية الشريعة، الجامعة الأردنية / الأردن.

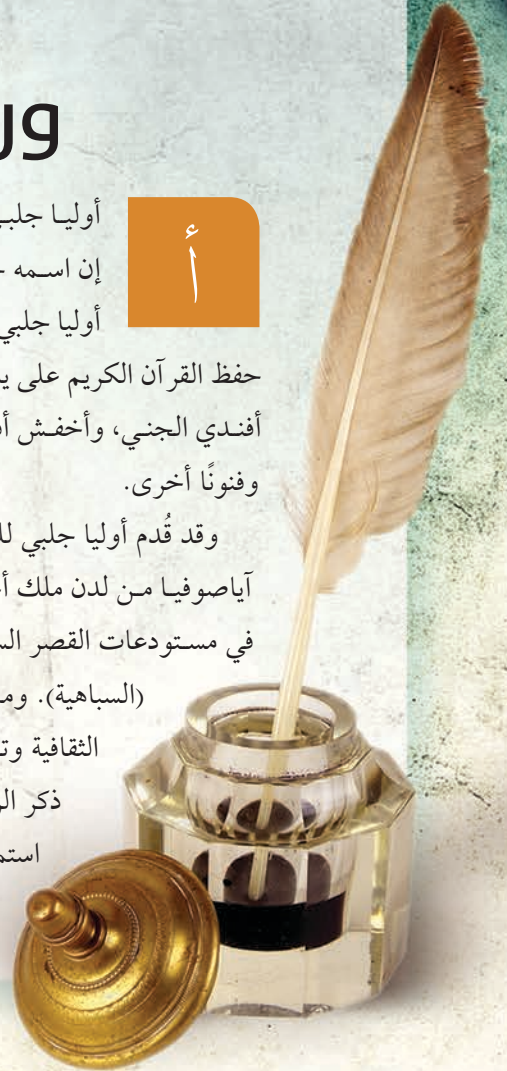


أوليا جلبي ورحلته إلى الحجاز

أوليا جلبي بن درويش محمد آغا ظلي، واسمه الحقيقي غير معروف، وقيل إن اسمه حافظ محمد خواجه، وهو من مواليد إسطنبول عام ١٦١١م. درس أوليا جلبي سبع سنوات في مدرسة شيخ الإسلام حامد أفندي، وعمل على حفظ القرآن الكريم على يد أستاذه أوليا محمد أفندي، ثم درس العلوم الأخرى على يد حسين أفندي الجني، وأخفش أفندي، وتعلم من والده -في هذه الأثناء- حسن الخط وفن الحك وفنوناً أخرى.

وقد قُدم أوليا جلبي للسلطان العثماني مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٣٩م) في أثناء وجوده في آياصوفيا من لدن ملك أحمد باشا الذي أصبح فيما بعد صدرًا أعظم للدولة العثمانية، فعينه في مستودعات القصر السلطاني، عمل هنا أربع سنوات، ثم انتقل بعدها إلى فرقة الفرسان (السباهية). ومما لا شك فيه أن عمله في القصر قد ساعده كثيرًا على زيادة معارفه الثقافية وتوسع أفقه، وعلى زيادة قدراته الأدبية والإدارية.

ذكر الرحالة أوليا جلبي أن عام ١٦٣٠م يشكل حجر الزاوية لرحلاته التي استمرت نصف قرن من الزمان. فقد كان يتشوق لرؤية العالم من حوله،



والاطلاع على عادات الناس وتقاليدهم عن كثب. فبات وهو يفكر في تحقيق ما كان يصبوا إليه من القيام برحلة حول العالم، حيث شرع في رحلته من إسطنبول، ثم انتقل منها إلى مدن الأناضول القريبة، وانطلق منها إلى العالم الفسيح؛ فتجول في ثلاث قارات هي آسيا وأوروبا وإفريقيا، وأشار إلى كل بلدة يتجول فيها، وسجل معلومات موجزة عنها من خلال بعض كتب التاريخ المعروفة.

ولقد انتقل أوليا جلبي بعد الانتهاء من الحج إلى مصر، وتوجه منها إلى الحبشة وإلى السودان، فتمكن من الاطلاع على أوضاعها عن كثب، ودون خلالها مشاهداته التي أخذت حيزاً كبيراً من المجلد الأخير من الرحلة.

توفي أوليا جلبي عام ١٦٨٢م، وقيل يحتمل أنه توفي عام ١٦٨٤م، وقيل إن تاريخ وفاته ومكانه غير معروفين. وترك لنا رحلته (سياحت نامه) التي دونها في عشرة مجلدات، فيها الغث والثمين من الأخبار عن البلاد التي زارها كافة. وتضمنت رحلة أوليا جلبي هذه الموضوعات الآتية:

الجزء الأول خصصه عن مدينة إسطنبول، والجزء الثاني ابتدأ فيه بالحديث عن رحلته إلى بورصا عام ١٦٤٠م، والجزء الثالث خصصه لرحلته من الشام إلى صيدا عام ١٦٤٩م، والجزء الرابع فصل فيه رحلته من إسطنبول إلى مدينة "وان" ثم إلى إيران برفقة بعض رجالات الدولة العثمانية، وفي الجزء الخامس تناول فيه تكملة الرحلة التي قام بها إلى مدينة "وان" ثم بدليس وبعض البلاد الشرقية الأخرى التي تم تفصيلها في الفقرة السابقة، والجزء السادس خصصه لرحلته إلى المجر وألمانيا وهولندا والسويد والبلاد التي زارها في أوروبا عام ١٦٦١م، الجزء السابع فيه تكملة لرحلة المؤلف إلى أوروبا، والجزء الثامن تحدث فيه عن رحلته مع خان القريم إلى بخجه سراء، ونبذة عن خانات القريم، ثم العودة إلى "أدرنه" ومراحل الطريق بينها وبين بعض المدن اليونانية، أما الجزء التاسع والعاشر خصصهما لبیان وتفصيل رحلته إلى الحجاز ثم مصر فالسودان.

مشاهداته في الحجاز

لقد تناول الرحالة أوليا جلبي تفاصيل رحلته من الشام إلى الحجاز في الجزء التاسع من الكتاب المعنون بـ"سياحت نامه"، ويقع ما يخص تلك الرحلة في سبع وتسعين صفحة، وذلك منذ خروجه من الشام في عام ١٦٧١م، حتى وصوله إلى مكة المكرمة، ثم القيام بأداء فريضة الحج والانتفاء من المناسك، ثم خروجه من مكة المكرمة متوجهاً إلى مصر. كما ذكر في هذا الجزء من الكتاب، منازل الطريق من الشام إلى مكة المكرمة؛ كمنزل قصر أحمد باشا الصغير، ومنزل قرية الكسوة، ومنزل فندق طرخنة، ومنزل قلعة الصنمين، ومنزل قرية بصرى الصغرى، ومنزل الكتبية، ومنزل قلعة مزيريب، ومنزل نهر حوريان (لعلة حوران)، ومنزل قرية النوى، ومنزل قرية طورنة، ومنزل قلعة مزرق... وغيرها من المنازل إلى أن ينتهي بمنزل وادي فاه. كما ذكر أوضاع بعض القبائل الواقعة على طريق الحج، التي تكفلت بنقل الحجاج من صحراء مزيريب إلى الحجاز، وأشار إلى أن تلك القبائل كانت تنتظر بخمسين ألف ناقة قدوم القافلة من الشام. ومن القبائل التي ذكرها الرحالة؛ آل عمر، آل رشيد، آل رياح، آل معان، آل خرنوش، آل ترايبي، بني سالم، بني إبراهيم، بني سعيد، آل خرفج، بني زيد، بني صفر، بني عطية وعطا، بني زهد، بني واحداث.

الأوضاع الاجتماعية في الحرمين الشريفين

١- المدينة المنورة: ذكر أوليا جلبي أن معظم أهالي المدينة المنورة يشتغلون بالتجارة، وأن المدينة تُنار بالقناديل في شهور رجب وشعبان ورمضان، وأن أسواقها لا تغلق أبوابها. إلا أن يوم قدوم الحجاج يصبح عيداً للأهالي؛ إذ يخرجون من البلدة الطيبة لاستقبال الحجاج بالقصائد والأناشيد. وبما أن الصرة الهمايونية (السلطانية) والهدايا تصل إلى المدينة المنورة مع قافلة الحج، فإن الأهالي ينتظرون قدومها بفارغ الصبر. وما أن يدخل الحجاج إلى البلدة حتى يصطف الناس على جانبي الطريق للسلام عليهم. وقد أشار الرحالة إلى فرحهم بقدوم الحجاج، أنهم يلبسون أجمل ملابسهم

ويدعون الحجاج إلى منازلهم لزيادة الإكرام.
وقد تحدث أوليا جلبي عن فقراء المدينة المنورة
أيضاً، وذكر أن الصدقات تدفع لهم خفية؛ لأنهم إذا
وجدوا الرجل يدفع الصدقة أحاطوا به من كل الجوانب
طالبين نصيباً منها.

٢- مكة المكرمة: لقد تحدث أوليا جلبي عن بعض
العادات الاجتماعية للأهالي في مكة المكرمة، وذكر
معلومات عن معيشة الأهالي فيها، وأنها تعتمد في
الغالب على الصرة التي يبعث بها السلطان العثماني،
وعلى القمح والرُّز القادمين من مصر ثم اليمن والزيلع
وغيرهما. وذكر أنواع ما يطبخ في مكة، وأنها نظيفة
وشهية، وأن أشهرها الهريسة. كما أشار إلى أن الفواكه
الموجودة فيها هي الجحجوب والبطيخ والعنب والخوخ
التي تجلب من مدينة العباس، وأن البلد الأمين لا يخلو
من الفواكه صيفاً وشتاء. وذكر أن مكة المكرمة تحيط
بها خمس عشرة مزرعة، هي الأماكن التي يتسامر فيها
الأشراف، وفيها تثمر أشجار النخيل والرمان والخوخ
والليمون والترنج والعنب والنبك. كما ذكر أنواعاً من
العطورات ولا سيما الورد والريحان والبخور.

ثم تحدث الرحالة عن العادات المتبعة لدى الأهالي
في مكة المكرمة في تجهيز الجنائز والصلاة عليها
ودفنها في مقبرة المعلاة، وأنهم يحترمون الميت كثيراً،
مشيراً إلى أنهم يزورون المقبرة يومي الإثنين والجمعة،
وأنهم يكثر من قراءة القرآن الكريم.

أماكن الزيارة والأماكن الأثرية

أ- المدينة المنورة: لقد تحدث أوليا جلبي عن أوصاف
الحرم النبوي والروضة المطهرة من حيث البناء
والعمران، وأورد الكتابات المنقوشة على جدرانه،
كما تحدث عن آداب السلام على النبي ﷺ، وصاحبيه
الكريمين، وآل بيته الطاهرين. ثم ذكر طرفاً من الأوقاف
الموجودة داخل قلعة المدينة المنورة، إذ أشار إلى
مدرسة سيف الدين سلطان وقد كتب على بابه: ﴿وَمَنْ
أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ
سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾ (الإسراء: ١٩)، وتحت مباشرة عبارة "أمر

بعمارة هذه المدرسة المباركة الأمير الكبير المحتاج إلى
عفو الرحمن سيف الدين خوبان والخاتونة المعظمة
سنة أربع وعشرين وسبعمئة". وبجانبها مدرسة السلطان
قايطباي، ثم مدرسة سُقُولُو محمد باشا بجانب باب
جبريل، ثم أوقاف محمد الثالث بجانب باب السلام.

وقد أشار الرحالة إلى أن عدد المدارس الشرعية
الموجودة داخل القلعة بالمدينة المنورة، مئة وثمانية عشرة
مدرسة، بالإضافة إلى وجود عشرين مدرسة للصبيان،
وسبعة دور للقراء، وسبعة دور للحديث، وسبعين سبيلاً.
وذكر أن أوقافاً بعضها كبيرة يتم فيها توزيع عصير
العسل والسكر على الحجاج. وأورد بعض الكتابات
الموجودة على جدران تلك السبل، منها: ﴿وَسَقَاهُمْ
رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾، و﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّى سَلْسِيلاً﴾.
ثم تحدث أوليا جلبي عن الأحياء الواقعة خارج قلعة
المدينة المنورة، فأشار إلى وجود سبعة أحياء خارجها،
وفيها ألفا منزل يتكون كل واحد منها من طابقين. وذكر
أن الأخشاب التي يتم بها بناء المنازل تستورد من مصر
عن طريق السويس إلى ميناء ينبع ومنها إلى البلدة
الطاهرة. مشيراً إلى وجود أربعة أوقاف كبيرة؛ أحدها
للسلطان سليمان القانوني، والآخر لحسكي سلطان،
بالقرب من حمام السلطان مراد الثالث، حيث يتم فيه
توزيع الأكل على الجميع ليل نهار ودون التفرقة بين
الفقير والغني. وذكر الرحالة أن بعضاً من ست وأربعين
مدرسة قد تحولت إلى منازل للسكن، وأشار إلى وجود
سته دور للقراء، وإحدى عشرة دار للحديث، وعشرين
مدرسة للصبيان في الأحياء الواقعة خارج القلعة.

وقد ذكر أيضاً من أماكن الزيارة الواقعة خارج
المدينة المنورة، كالبقيع، ومسجد قباء، وسيد الشهداء
حمزة بن عبد المطلب ﷺ، وشهداء أحد.

ب- مكة المكرمة: لقد تحدث أوليا جلبي عن
أوصاف بيت الله الحرام من حيث البناء والعمران
والتخطيط والساحات، ومقام سيدنا إبراهيم ﷺ، وباب
الصفاء، وكسوة الكعبة المشرفة وكيفية إعدادها، وذكر
آداب الدخول إلى الحرم، وأورد بعض الأدعية المأثورة
في ذلك. ثم تحدث عن المشاعر المقدسة، وذكر

أوصاف منى و عرفات والمزدلفة، والجبال الموجودة في تلك المشاعر مثل جبل عرفات وجبل مهيب، وما سماه بجبل صفاء الواقع تحت جبل أبي قبيس، فأشار إلى أن منازل الأشراف توجد على تلالها أدوارًا أدوارًا. وتحدث عن مسجد إبراهيم عليه السلام في عرفات وهو أكبر مساجدها، وذكر أوصافه، وأشار إلى أن الحجاج يدخلونه أفواجًا أفواجًا ويجمعون فيه الصلاة يوم الوقوف قصرًا. كما تحدث عن المزدلفة ثم منى، وما ينبغي على الحجاج القيام بها من واجبات وسنن. وذكر أوصاف بعض الجبال الأخرى في المشاعر، منها جبل "سبر"، وجبل "المرسلات" الذي نزلت فيه على النبي صلى الله عليه وسلم سورة المرسلات، ثم جبل "العقبة" الذي في أدناه مسجد البيعة، ثم "جبل النور".

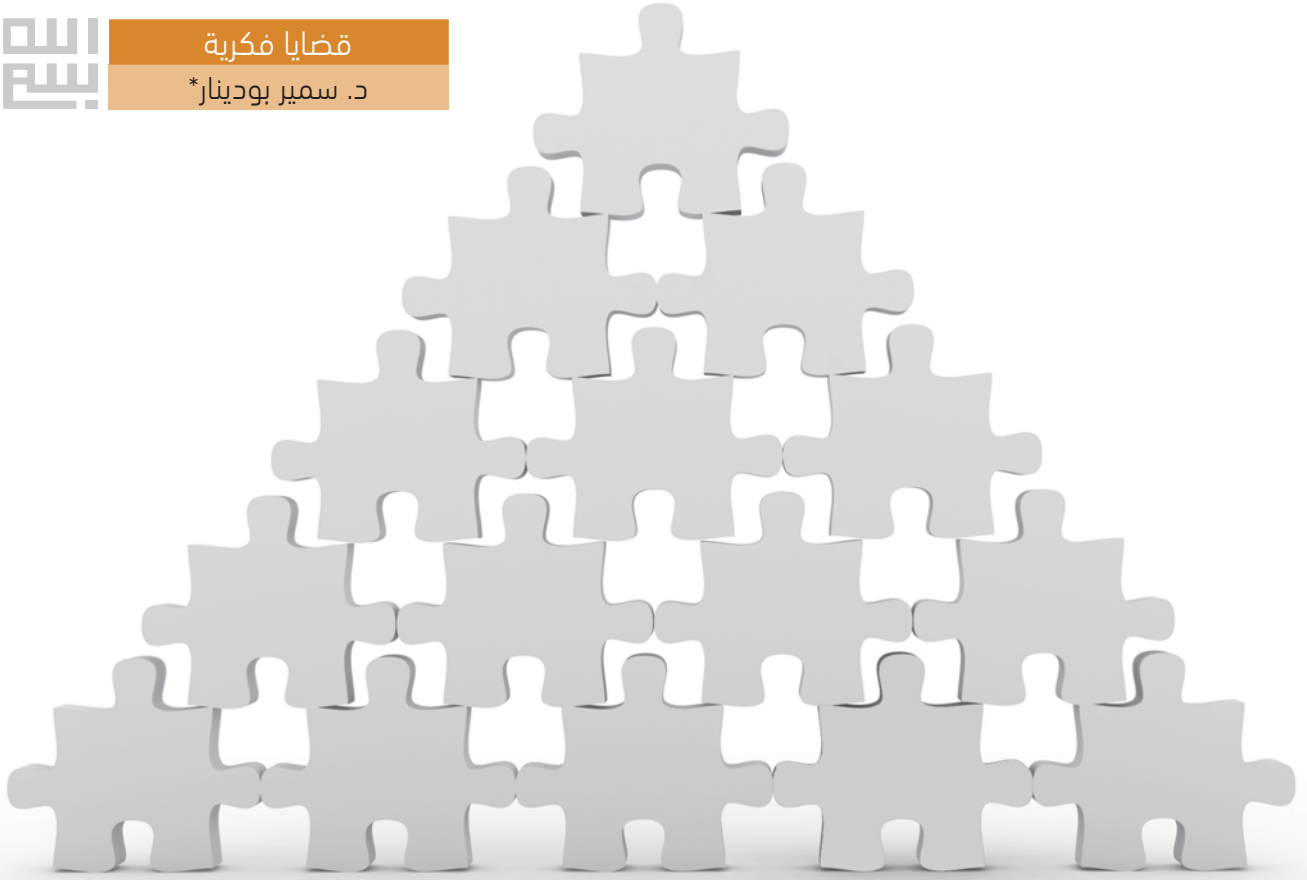
وتحدث الرحالة بعد عن حدود مكة المكرمة، فذكر أنها تحد من الشمال بجبل ناقيه الواقع في ستة عشر منزلاً، ومن الغرب بالمولح الواقعة بعد ثمانية عشر منزلاً، ومن الجنوب مدينة جدة الواقعة بمسافة إثنتي عشرة ساعة، ومن الشرق نهر القاع الواقع بعد عشرة منازل. أما ما يخص أوصاف بيت الله الحرام، فقد ذكر الرحالة أن السلطان سليمان القانوني قد أمر المعماري سنان بوضع عتبات لأبواب البيت المعظم التسعة والثلاثين، للحفاظ على البيت وصحنه من مياه الأمطار والسيول. كما ذكر أن باب السلام قد تم ترميمه من لدن السلطان سليمان القانوني. ثم ذكر من أبواب البيت المشرف؛ باب السلام، وباب بني شيبه، وباب النبي صلى الله عليه وسلم، وباب الجنائز، وباب عباس، وباب علي، وباب بني هاشم، وهي كلها تقع في شرقي البيت. وذكر عدد أبوابه في الجنوب بأنها سبعة، وهي باب الأسواق، وباب الصفاة، وباب مخزوم، وباب أجياد، وباب مجاهدية، وباب فندق الأمة، ولم يذكر اسم الباب السابع. أما في الغرب فقد ذكر اسم بابي إبراهيم وباب العمرة من أبوابها الثلاثة. وقد ذكر الرحالة من أبواب البيت الحرام في الشمال، باب زياد، ثم باب دار الندوة، ثم باب الباسطية.

وتحدث أوليا جلبي أيضاً عن مآذن الحرم السبع،

مشيراً إلى أن أقدمها هي مئذنة باب العمرة وقد أقامها منصور الدوانقي العباسي. وذكر مواقع المآذن الأخرى بأن الثانية مئذنة باب السلام وقد جردها السلطان سليمان القانوني، والثالثة مئذنة باب علي وهي من عمارة العباسيين، وقد جردها أيضاً السلطان سليمان القانوني، والرابعة باب الحضر (هكذا) وهي أيضاً من عمارة العباسيين، والخامسة مئذنة باب زياد وقد أقامها سلطان مصر الملك الأشرف بايبرس، ولم يذكر الرحالة المئذنة السادسة، أما السابعة فقد أشار إلى أنها أعلى المآذن السبع. كما ذكر أن سبعة مؤذنين يعلنون عن دخول الوقت على المآذن السبع لمدة ساعة كاملة. ثم تحدث الرحالة عن بناء البيت العتيق عبر التاريخ الإنساني الطويل من خلال المراجع التي اطلع عليها. وقد أورد أوليا جلبي معلومات عن الحجر الأسود، وعن ماء زمزم ونبعه، وعن باب السلام القديم قبل التوسعة التي شهدتها الحرم، وعن مقام إبراهيم عليه السلام، ثم ذكر أسماء بعض مساجد مكة المكرمة في عهده، منها مسجد النبي صلى الله عليه وسلم، ومسجد عمر رضي الله عنه، ومسجد أبي بكر رضي الله عنه، ومسجد الحق، ومسجد الركوب، ومسجد المدعى. وأشار إلى وجود ٧٤٠ محراباً في مكة المكرمة. وتحدث كذلك عن الأوقاف الموجودة داخل مكة المكرمة وسبلها.

هذا وقد تبين من خلال قراءة الكتاب "سياحت نامه" أن المؤلف كان ملماً بأحداث التاريخ الإسلامي والثقافة الإسلامية إلماماً جيداً، ساعده على توضيح كثير من اللمحات التاريخية التي أوردها في صلب الرحلة. وكانت ذاكرته قوية في استرجاع ما يتعلق بمعالم الأماكن التي زارها أو مر بها، من خلال اطلاعه الواسع على المراجع الإسلامية والتاريخية المتوفرة في عهده، لا باللغة العثمانية فحسب، بل حتى باللغة العربية. ■

(*) أستاذ التاريخ العثماني في كلية الآداب، جامعة الملك سعود بالرياض / المملكة العربية السعودية.



"خُوجَه أفندي"

قوة المثال في النموذج المجتمعي

أداء مهامه الكبرى في عالمه، تلك التي أجملها الوحي في أمانات الوراثة والاستخلاف والعمران. والذي يعنينا في هذا المقال، هو محاولة الوقوف عند ذلك النموذج كما تأسس في اجتهادات وأفكار "خُوجَه أفندي" اللقب التركي للأستاذ كولن، الذي يعني "السيد الأستاذ"، وكما تبلور في الواقع -ولا يزال- من خلال مشروع "الخدمة". والذي نزعم أنه نموذج حضاري ذو هوية مجتمعية، وهو أمر يقتضي توضيحات أولية حول المراد بهذا النموذج وعلاقته بنماذج أخرى مغايرة.

أولاً: ليس الحديث عن نموذج حضاري مجتمعي هنا، مقابلاً للنموذج السياسي للإصلاح؛ لأن النموذج المجتمعي معني بالشأن العام عنايته بالشأن الخاص بالإنسان الفرد بناء وترتية وإعداداً، وحاضر في المجال العام على أكثر من مستوى، مما ينشأ

ع
عندما يكتب المرء عن الأستاذ فتح الله كولن، فهو يكتب عن الشخصية العلمية والتربوية المرموقة بين رموز الإصلاح في عالم المسلمين اليوم، لكن الأهم في تلك الشخصية ربما أنها استطاعت أن تنتج نموذجاً كامنة خصائصه في مدرسة تجديدية للنهوض والتغيير واستعادة المبادرة الحضارية.

معلوم أننا نكابد في عالم المسلمين مخاض النهوض وأسئلته الحارقة منذ أزيد من قرنين من الزمان، وهي أسئلة متعددة تتصل بالطريق الذي يخرج بمجتمعاتنا من التخلف ويمكنها من أسباب النهوض. غير أن جوهر تلك الأسئلة جميعاً، هو قضية مركزية جامعة تلتخص في السبيل إلى إنتاج نموذج حضاري خاص بديل. وشرط هذا النموذج المنشود، هو تحقيقه فاعلية الإنسان في

مساحات التقاء وتقاطع بالضرورة بين النموذجين. ثانيًا: ربما كان النموذج الأقرب إلى كونه مقابلًا للنموذج المجتمعي، هو "نموذج السلطة السياسية"، أي نموذج التغيير المتمركز حول السلطة السياسية، تنافسًا عليها واستخدامًا لأدواتها. وهو نموذج مخالف للنموذج المعرفي الحضاري الإسلامي للسياسية في معناها الأشمل بوصفها منظومة آليات للإصلاح، أي "القيام على الأمر بما يصلحه" كما يقرر العلامة ابن خلدون. ومن المهم في هذا السياق، التأكيد على أن الأمر يتعلق -بالفعل- بنموذج كامل في مقابل نموذج كامل آخر، لكل منهما فلسفة ورؤية للتغيير، وأهداف ووسائل وإن اتحدا في الغاية النهائية التي ينشدها؛ وهي تحقيق مقتضيات الاستخلاف في الأرض وعمرانها من خلال بعث النموذج الحضاري المؤسس على هدي الوحي، لكن الاتحاد في الغاية لا ينبغي أبدًا أن يصرف النظر عن أهمية النظر بعمق في النموذجين ورؤيتهما، وفحص مستوى وعيها بالحقائق الماثلة وفعاليتها في تحقيق ما ينشدها من غاية، والوسائل التي يستخدمها من حيث الجدوى والآثار على الواقع.

لكن ليس معنى ذلك أننا نقدم هنا نقدًا لنموذج السلطة السياسية الحديثة والمعاصرة، وقوامه الآلية والقواعد الديمقراطية، فهو وإن كان قد تعرض لنقد واسع في الكتابات الفلسفية والسياسية الأحدث -ترد بعض الإشارات إليه دون أن يكون هذا مجال التفصيل فيه- إلا أن النقد مؤسس على التجاوز وهذا رهن بالاستيعاب؛ وهو ما لم يتم إلى الآن في مجتمعاتنا بالنسبة لآليات النموذج السياسي الحديث وتطبيقاتها المتعددة.

١- نموذجان للتغيير

يسعى نموذج التغيير الحضاري أو المجتمعي في رؤية "كولن"، إلى تحرير إرادة المجتمع وإكساب كافة وحداته الفعالية المطلوبة، لتتحرك ذاتيًا نحو بناء المجتمع وشهود الأمة ورشاد الإنسانية، بمعنى أنه نموذج التغيير المنطلق من قاعدة المجتمع إلى قمته، مرورًا بكافة وحدات المجتمع بلا استثناء. وواضح في ضوء هذا النموذج -كما تجلى واقعياً في منظومة

مشاريع ومؤسسات "الخدمة" منذ أزيد من أربعة عقود- أن منطلقه هو "بناء الإنسان" وإكسابه المواصفات اللازمة لوراثة الأرض، وهو هدف يفضي إلى الارتقاء به عبر نقلات نوعية، وتحرير إرادته، ومن ثم تحرير إرادة المجتمع كله، وإكسابه القدرة على أخذ زمام المبادرة بشكل يحقق أكبر قدر مستطاع من الاستقلالية عن أي إرادة، سواء كانت إرادة سلطة حاكمة -مهما كان لونها أو توجهها- أو قوة تأثير داخلية أو خارجية، فيعيد بذلك سلطة الدولة إلى حجمها الحقيقي الذي كان عليه قبل أن يتمدد باضطراب عبر الزمن؛ مما يعني أن تسيير السلطة إلى جانب المجتمع، ميسرة أمامه سبل الفعل، ومذلة ما يواجهه من صعوبات، دون أدنى سعي للحلول محله في أداء وظائف لا يمكن أداؤها أصلاً، ولا تتسع بنيتها والتزاماتها وهامش حركتها لما تقتضيه تلك الأهداف من تحرر إرادة ومثال أخلاقي وطاقة فعل ومرونة حركة.

وليس معنى ذلك أن هذا النموذج لا يملك تصورًا لتدبير الشأن العام بما في ذلك السياسي، بل إنه من خلال رصد الحركة في الواقع، يعيد تعريف العمل السياسي، ليخرج به من إطار الحزبي ومقتضياته التنافسية على سلطة الحكم، فيجعله قوة فعل عام قوامها النموذج الإنساني المؤهل والفاعل، والمجتمع الحي والمتحرك والمبادر، دون أن يظل أسير الهدف الحزبي المحدود في وسائل الممارسة السياسية التقليدية. بل إن هذا النموذج، هو استثمار إيجابي للوظائف الأهم والأشد تأثيرًا من بين تلك التي تقوم عليها علاقات الدولة الحديثة بالمواطن، من قبيل التعليم والاقتصاد والإعلام. أما نموذج السلطة السياسية فقائم على مبدأ التغيير من خلال سلطة مؤسسة الحكم، أي امتلاك أداة السلطة السياسية طريقًا للتغيير. لذا فإنه من المهم الإشارة إلى أن ما يعاينه من أزمات حالية، مرتبطة أساسًا بسلامة الأداة الأساسية للتغيير وإمكانية تحقيقه بالاعتماد عليها، ذلك أنه فضلًا عن المحدودية الواضحة للسلطة السياسية في عملية تغيير تستهدف غايات كبرى ذات طابع حضاري، مؤسسة على القيم الشاملة للوحي؛ فإن المنظور السياسي

إن النموذج الحضاري المجتمعي، يعيد الاعتبار لقيم الوحي في حياة الإنسان والجماعة؛ مركزاً على بناء الإنسان هدفاً مركزياً، ليكون مؤهلاً لصياغة عالمه على مقتضى رسالته في الكون كما قررها الوحي بمقاصدها الكبرى في بناء العمران.

حدا

الناس، فلا بد حثيذ من مد هذه العلاقة باستمرار بوقود من الخطاب الحماسي، وصناعة الصورة، والتمركز حول الشخصية القيادية؛ وهذه هي مهمات عمليات التواصل السياسي الذي يحيل ذلك الإنجاب إلى تفويض مطلق. وتزداد هذه السلطة في توجيهه، من خلال وسائط التأثير في عصرنا، الذي يعتبره كثير من المؤرخين وعلماء الاجتماع، عصر الجماهير (غوستاف لوبون)، أو عصر الجماهير الغفيرة (جلال أمين)، بعد أن تسيدت وسائط الاتصال عوامل التوجيه وصياغة القنوات وتشكيل الرأي العام.

ولأن الغاية في النموذج المجتمعي لا تنفصل عن وسيلة التغيير وأدائه التي يتبوأ الإنسان فيها منزلة الصدارة، فإن مقتضاه أن تكون شبكة علاقاته قائمة على معان أكثر عمقاً وأقوى تأثيراً في بناء دافعية الإنسان نحو التغيير المنشود، هكذا تنصدر قيم التأسي والافتداء بالرموز العلمية والمجتمعية في نسق تراحمي، والبذل في سبيل الفكرة إلى أقصى الحدود في كل مكان ومجال. إن المقصود بالمثل الإنساني هنا، هو نوعية العنصر الذي يحرك هذه المنظومة فتعيد إنتاجه على امتداد الأمكنة والبيئات والظروف؛ المعلمون، المهاجرون، والمضحون بمصائرهم الشخصية والأسرية والمهنية، الأساتذة المتفانون في رسالتهم حد التماهي، الرجال والنساء الباذلون من أموالهم في تسابق عجيب تشهد عليه "مجالس الهمة" لبناء هذه المدارس والجامعات والمؤسسات ورعايتها في تركيا وعبر العالم، خريجوها من الطلاب الذين يعيدون إنتاج هذه الدائرة الصالحة من الخدمة والبذل، هؤلاء الذين يشكلون جميعاً "جزر سلام" حقيقية في عالم مضطرب، كلهم عنوان المثل، ومعيار دقيق في الحكم على قوة النموذج الكامن في

يواجه معضلة الدولة الحديثة التي يتخذها مركباً بلوغ غايته مع ما هو معروف من الأزمات المستحكمة التي تثن تحت وطأتها هذه الدولة بإطلاق، سواء من حيث جوهرها العنيف، أو نزوعها التحكيمي للسيطرة على مساحة الفعل على حساب المجتمع، أو صناعتها لآليات استبدال جديدة باسم الأغلبية والديمقراطية وشرعية الصندوق، أو ضربها لروح التوافق ومفهوم الجماعة، مع ما في ذلك من آفات التحكم اللاأخلاقي لمؤسسة الدولة نفسها وموازينها الداخلية وإكراهاتها بالأفراد ومجموعات الحكم مهما كانت مستوياتهم الفردية أو توجهاتهم الفكرية أو الأخلاقية الأصلية، نظراً للطبيعة التحكيمي لمؤسسة الدولة الحديثة نفسها، التي تكاد في بعض الأحيان تحكم الجالس على كرسيها بدل العكس مما يتوقعه الناس من الحاكم عادة، ويعلقونه على وجوده من آمال عراض، مستسلمين لذات الفكرة التبسيطية عن إمكانية التغيير الشامل بالأداة المفردة أو الفرد القائد المخلص.

وغني عن التذكير هنا، أن السلطة السياسية في الدولة الحديثة، ليست قيماً على الأمر بما يصلحه، لأسباب ترتبط بظروف تشكل هذه الدولة، وامتداد السلطة السياسية العضوي من حقل العنف أو احتكاره على الأقل كما يقول "ماكس فيبر"، وغيرها... مما يجعل أي إسقاط تاريخي على التجربة الإسلامية مثلاً في مجال تدبير السلطة السياسية المعاصرة، خاطئاً من الأساس، لأنه قياس مع وجود فوارق نوعية كبرى.

٢- قوة المثل الإنساني

يبدو نموذج السلطة السياسية الحالي -الابن الشرعي للدولة الحديثة ونمطها في التحكم بغض النظر عن أيديولوجيته- قائماً على منظور لمنظومة العلاقات داخل المجتمع مغاير تماماً للمنظور الحضاري المجتمعي. فهو ينظر إلى القاعدة الاجتماعية العريضة من الناس بوصفها مجالاً للتوجيه، وأن مهمة الفاعل في هذا النموذج هو قيادتها وتوجيهها. وهي مهمة لا تتحقق إلا من خلال تركيز علاقات الإعجاب (الكاريزما)، بل الانبهار بين الحاكم (أو صاحب السلطة السياسية) وبين

المنظومة المؤسسية، الذي أنتج هذه التجربة الإنسانية الحية في عالماً.

يمكن حقاً لنموذج فكري أو تربوي أن يقدم نفسه للعالم اليوم معتمداً على مؤشر قوي من مؤشرات الجودة، ويمكن لهذا النموذج أن يعرف الانتشار والقبول سعياً للإفادة الجزئية من هذا المؤشر. وليس صعباً أن نجد أمثلة عديدة على ذلك في زمن الإنتاج والاقتصاد والمعرفة المعولمة، لكن الصعب حقاً هو أن يكون التحدي بالمثل الإنساني. أن تكون علامتك المسجلة موضع الثقة والفعالية إنساناً مؤهلاً تتحدى به ظروف معقدة في بيئات صعبة عبر العالم، واثقاً من نجاعة مسلكه القيمي والتربوي، وكفاءته في التعامل معها في كل مكان.

٣- معادلة الوعي التاريخي والرؤية المستقبلية

لم تكن هذه الروابط بما ينسجها من قيم ومعان لتؤتي أكلها فعالية تربوية ونماءً اجتماعياً وتغيراً في أعماق المجتمع، وعلى صفحة التاريخ الممتد في النموذج المجتمعي دون وعي تاريخي حاد وموجه.

فليس غريباً أن ترى الأستاذ "كولن" يبكي في درس من دروسه أو موعظة من مواعظه الدائمة، متأثراً بحدث تاريخي وهو يقف عنده مفسراً، ولا أن تسمع نبرات الحسرة في صوته وهو يحلل موقفاً تاريخياً، أو تقرأ له في كتبه استدرأكا على اختيار ما في لحظة تاريخية سالفة... سر ذلك هو الوعي التاريخي الذي يؤكد عليه، والذي يتخطى حواجز الزمن، بل يتجه إلى بعدي الزمن بنفس القوة والدقة، إلى الماضي المجسد سياق الواقع وجذوره ومحدداته، وإلى المستقبل الكامن في رحم الغيب مستودعاً للأهداف والغايات.

الحقيقة أن الواقع وفق ذلك النموذج إن هو إلا مستقبل نحيله ماضياً بقوانين السعي في الأرض، ومن خلال إرادة الإنسان الواعية.

وإذا كان القائلون يقدمون الواقع تكراراً للتاريخ يستحيل معه الإنسان إلى كتلة منفصلة، حين يرددون أن "التاريخ يعيد نفسه"، فإن الأستاذ كولن يبيننا -بقولته "التاريخ يشبه نفسه"- إلى القوانين والسنن التي تتحد

فيها وقائع التاريخ فتشابهه، دون أن تتجاوز أهميتها الإنسان أو الخليفة وسعيه بوصفه مسخر السنن، ومحور الكون، والفاعل الرئيس في مساحة التاريخ.

أما في المستقبل، البعد الثاني في خط الزمن الإنساني والاجتماعي فتوسيع لمدى الرؤية الإستراتيجية الحاكمة للأهداف الكامنة في كافة البرامج والمراحل. وهنا، حيث مفهومان مختلفان للمرحلية، تكمن أولى تجليات التقاطع بين النموذج المجتمعي ونموذج السلطة السياسية.

تعني المرحلية وفق النموذج المجتمعي، أن تكون الرؤية الإستراتيجية المتصلة بالغايات الحضارية الكبرى واضحة شديدة الوضوح، ثم تتعلق الأهداف المرحلية بها، وتدور البرامج والمهام والمناشط المختلفة حول تحقيق هذه الأهداف، بما يحقق الرؤية الإستراتيجية الكلية تدرجاً ولا ينقضها أو يصادمها أبداً. صحيح أنه لا يمكن تحقيق تلك الأهداف كافة، ولا تنزيلها على الواقع إلا في إطار الإمكان وظروفه وشروطه، لكن الأهم هو أن يظل السعي محكوماً بالغاية، منقاداً إلى تحقيق الأهداف حسب الإمكان في غير تثاقل يقصر بالسعي عن بلوغها، ولا تسرع يغفل الشرط الواقعي أو يقفز عليه. غير أن نموذجاً بهذا المستوى من الانضباط للشرط التاريخي، سواء في مداه الزماني ماضياً ومستقبلاً أو في قانونه السنني واقعاً، ليس يسير التحقق، إذ ينضاف إلى المثل الإنساني في انتمائه وعلاقاته، الترفع الواعي والمنضبط عن الأهداف المرحلية المعلنة، مما لا علاقة له بالرؤية منطلقاً والغاية محدداً. ولعل هذا هو مكن السبب فيما يبدو من مظاهر الاصطدام بين هذين النوعين من الأهداف.

فكثيرة هي الأهداف التي وإن لم يعوزها حسن الدافعية وسلامة القصد، فإنها تخضع لمؤثرات ظرفية من قبيل الموجات الاجتماعية وعواصف الجمهور، وردود الأفعال والحضور الطاعي في وسائط الاتصال. الفرق هنا ليس في مدى الاستيعاب للرؤية والصبر على مراحلها، بل في الوتيرة الخاصة بكل النموذجين على خط الواقع الإنساني وامتداداته الحاضرة.

إذا كان نموذج السلطة السياسية معنيًا بالفعل
الآني ومدى تأثيره في رأي الجمهور، فإن
النموذج المجتمعي مرتبط بمحددات ذلك الفعل
وشروطه التاريخية والحضارية والمجتمعية، بما
تقتضيه من تغيرات دقيقة ومعقدة في منظومات
القيم، ونمط التربية، وتركيبه مؤسسات الاجتماع.

حراه

لرؤية متسقة مع وعيه بخصائص الدولة الحديثة التي
لم تُبق للماسك بزمام السلطة السياسية الدور الأساس
في الإصلاح العام بمعناه الأعمق والأبقى؛ فإن البعض
يعد هذا موقفًا من هوية المجتمع وتعبيراته في السلطة،
مع أن بين الأمر (بين هوية المجتمع وهوية السلطة)
اختلافًا واضحًا، بل تقابلًا من حيث طبيعته محددات
كل منهما. فالمجتمع تعبير عن الأصل الثابت الذي
يمثل الاستمرارية، بينما السلطة تجسيد للمرحلي الآني،
وليس المهم في ما يصدر عنها من فعل - آني بطبيعته
كذلك - أن يكون صائبًا في ذاته أو بمقاييسه دائمة التغير
فحسب، بل الأهم أنه إن لم يخدم مقومات الاستمرارية
وينميها، فلا أقل من أن ينسجم معها فلا يصادمها.
والحقيقة أن ربط الهوية المجتمعية التي صاغها الإسلام
في الأساس، بنموذج السلطة السياسية يثير آليات
المقارنة المباشرة بين مكونين، أحدهما ثابت راسخ،
والآخر مؤقت دائم التحول. وهو ربط سيؤدي إلى
الإضرار بهما معًا؛ بالإسلام الذي هو لحمه المجتمع
وسداه الراسخين بربطه بنموذج متحول، وبالنموذج ذاته
بتحميله عبأ لا قبل له به، ومسؤولية لا طاقة له بها مهما
ادعى أهليته لتمثيلها في مرحلة ما، لأنها في الواقع
أعظم من أن تستوعبها قدراته.

ومن الواجب في هذا المقام، تأكيد مبدأ واضح في
ذاته أولاً وفي علاقاته بالسياقات الراهنة كذلك، وهو
أن سلامة المجتمع وأمانه الداخلي مقصد تقتضيه رؤية
التغيير في النموذج الحضاري المجتمعي اقتضاء ملحاً،
ذلك أن هذا النموذج يولي الأهمية الشديدة للمجتمع
باعتباره مقصد التغيير ومادته الأساس، وما يستتبعه
ذلك من أهمية الاستقرار والسلم الاجتماعيين والحفاظ

فكيف لوتيرة مقيدة إلى زمن السلطة السياسية
المتسارع والقصير المدى، المنضبطة لمواعيده
واستحقاقاته، المحكومة باتجاهات الجماهير وسلطة
الرأي العام، أن تصبر على أهداف بسعة مواجهة الأعداء
المزمنين؛ الجهل، والفقر، والفرقة.

فالنموذج الحضاري المجتمعي يعيد الاعتبار -بدأً
وإصراراً- لقيم الوحي في حياة الإنسان والجماعة،
مركزاً على بناء الإنسان هدفاً مركزياً، ليكون مؤهلاً
لصياغة عالمه على مقتضى رسالته في الكون كما قررها
الوحي بمقاصدها الكبرى في بناء العمران، فتصير تلك
المقاصد الكلية محدداً لأهداف حركته في الواقع. لذا
نجد أن أهداف كبرى بسعة نشر العلم مقابلًا للجهل،
وتحقيق الكفاية مقابلًا للفقر، وإرساء أسس الحوار
وال تفاهم مقابلًا للفرقة والصراع، ظلت أهدافاً قارة
لهذا النموذج، بل هي المؤهلة وحدها لتوجيه مساره
في المستقبل المنظور كما يبدو، لأن المقاصد الكلية
الحاكمة لها والكامنة في النموذج، واضحة ثابتة.

بكلمة؛ إذا كان نموذج السلطة السياسية معنيًا بالفعل
الآني ومدى تأثيره في رأي الجمهور، فإن النموذج
المجتمعي مرتبط بمحددات ذلك الفعل وشروطه
التاريخية والحضارية والمجتمعية، بما تقتضيه من
تغيرات دقيقة ومعقدة في منظومات القيم، ونمط التربية،
والسلوك ومستويات المعرفة، ومؤشرات الفعالية
الاجتماعية وتركيبه مؤسسات الاجتماع.

وسواء تعلق الأمر بشبكة علاقاته الداخلة أو مدى
إدراكه التاريخي والحضاري وتدبيره لزمته الخاص،
فإن نموذج السلطة السياسية يظل غير قادر على تأسيس
الفعالية المجتمعية في مستواها الحضاري بعيد المدى،
والتي هي شرط الإصلاح العام وهو المعنى المجتمعي
للسياسة، أو أنه على الأقل لا يتسع لها.

٤- صراع النماذج وصياغة التمثلات

من التجليات الأليمة لمفارقة الغايات ومرحليتها،
أن النموذج المجتمعي حين لا يولي لأداة السلطة
السياسية (وليس العمل العام والشأن السياسي)، ولا
لهوية الماسك بها، أهمية محددة لمساره العام، كتجل

برعم الخليقة

برعمٌ يُشَمُّ،
وإلى الصدر يُصَمُّ..
نسيمُه عذب..
رفيقاً إذا سرى،
لطيفاً إذا جرى..
إلهيَّ الهبة،
سماويَّ الشدّي،
سروريَّ إذا رنّا،
عطريَّ إذا دنّا،
ذاك هو طفل الدنا.

* * *

عليهما في هذه الرؤية، واعتبار ذلك أولوية تقتضي التضحية بالمنجز الخاص أو المرحلي، كما هو واضح في أمثلة حية من تجربتها لا يتسع المجال للتفصيل فيها. ولأن المنح تأتي دوماً في طي المحن، فإن الحال الراهنة فرصة هامة لإدراك أدق لمعالم النموذجين وأهم الفروق المميزة لكل منهما، فالتمايزات تكون أنثذ أكثر وضوحاً، وأظهر في لحظات الأزمة، بما يصاحبها من ردود فعل وتمثلات جماعية ومواقف ينتجها كلا النموذجان في تفاعله مع الواقع.

ولعلنا نقف عند أهم الدروس المتأتية إلى الآن، من واقع تلك الأزمة التي آن لها أن تُقرأ بأعمق من المستوى الظاهر الذي تغطي فيه الشخوص والأحداث وردود الأفعال... خاصة بالنسبة لنموذج حي وفاعل استطاع أن ينجز على الصعيد الإنساني في المجالات الأدق المتصلة ببناء الإنسان من خلال التربية والتعليم، وبحفظ حيوية بنيات المجتمع، بوصفها ضرورة حاسمة للحفاظ عليه، وضمان أكبر قدر من الاستقلالية له، في تجربة تعيد تعريف السياسة والعمل العام، بما يتجاوز سقف التنافس على السلطة.

ويبدو أن تناول النموذج الإصلاحى للأستاذ "فتح الله كولن"، بوصفه نموذجاً مجتمعياً، لا يتجلى في أبعاده الكاملة إلا من خلال المقارنة بين رؤيتين مركبتين للعالم وللتغيير فيه، ومقومات هذا التغيير ومداه وأولوياته. وهما الرؤيتان اللتان تجملان أكثر محاولات التغيير والإصلاح الجادة في عالم المسلمين اليوم، وهذا هو مكمن الأهمية في مجمل ما نشهده في عالمنا خلال هذه المرحلة من تجليات. أما الأمل من هذه الكلمات، فهو أن تكون ثمرتها هدية لكثير من ذوي النهى، المعانين واقعاً أليماً؛ ثمرة قوامها نموذج حضاري حي وفاعل، يستمد الحياة من مصدر معنوي عميق الغور، والفعل من مكابدة واقع مركب ومتعدد المستويات رحب الآفاق. ■

(*) رئيس مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - وجدة / المغرب.

ديناميكية المفاهيم القرآنية وتكاملها فيما بينها

المفهوم الآخر قليلاً أو كثيراً. ولهذا يستحيل أن يؤخذ مفهوم مفرداً منفصلاً عن سائر المفاهيم الأخرى، وقد قيل إن القرآن وحدة، أو كلمة، أو بنية، أو نسق، أو نظام... إلخ، وكل هذا يشير إلى أن المفاهيم القرآنية مفاهيم ذات وحدة كلية تحدد تصوراً معيناً، ثم بعد ذلك تنتقل إلى الوحدات الجزئية المنضوية تحت هذه الوحدة الكلية. ومعروف أنه قبل مجيء الإسلام، كانت للعرب ألفاظ، وكانت لها مصطلحات، وكانت لها لغة عربية

المفاهيم القرآنية وحدة كلية لا تتجزأ، وهذه خاصية من خصائص القرآن الكريم، ووجه من وجوه إعجازه الكثيرة التي ليست لغيره من الكتب، إذ إن مفاهيمه التي تكونه سواء في المجال العبادي أو في المجال العادي أو في أي مجال من المجالات تعلقت به هذه المفاهيم، هي شبكة ومنظومة بينها من الوشائج ومن الترابط، وبينها من الوحدة والتكامل ما يجعل كل مفهوم يستمد من

إن المفاهيم القرآنية عملية وواقعية أو حركية، وذلك أنها نزلت إلى إنسان مدعو إلى أن يتمثل هذه المفاهيم، ويبني بها حضارته، ويعمر بها الكون. فهي مطلقة كونية، لكنها عملية واقعية ودينامية حركية، توجه وتسدد عمل الفرد والجماعة على حد سواء، وتصلح من حالهما.

حراء

متداولة، والقرآن نزل بهذا اللسان العربي الذي كان متداولاً، ونزل بهذه الألفاظ التي كانت متداولة. لكن كما يذكر كثير من علماء اللغة، فالقرآن مارس ثلاثة أنواع من التعديلات على الألفاظ التي كانت متداولة في اللسان العربي عند نزوله، فالقرآن إما أن يعدل اللفظ تعديلاً كاملاً ويعطيه دلالة شرعية جديدة لم تكن له قط في السابق، وإما أن يعدل في اللفظ تعديلاً بسيطاً فيحافظ على جزء من دلالاته ويضيف عليه دلالة أخرى، وإما أن يحافظ عليه كما هو إذا كانت دلالاته معتبرة من حيث الناحية الشرعية، وهذا في سائر الألفاظ التعبديّة والعادية؛ فالحج كان في اللغة القصد ولا يزال معناه القصد، لكن أخذ معنى آخر ودلالة شرعية جديدة هي أركانه وواجباته ومستحباته ومكروهاته... إلخ، وقل مثل ذلك في الصلاة والزكاة والكفر والإيمان وغيرها. إن خصائص الألفاظ والمفاهيم القرآنية كثيرة أذكر من بينها ما يلي:

أولاً هذه الألفاظ والمفاهيم القرآنية هي ألفاظ ومفاهيم مطلقة تابعة لإطلاقية الوحي، فنحن إذا آمنّا بأن كتاب الله تعالى المنزل الخاتم لسلسلة الرسالات السماوية مستوعب للزمان والمكان والإنسان، فكل مفهوم فيه يمتلك هذه الخاصية كذلك، أي خاصية الإطلاق المستوعبة للزمان والمكان والإنسان حيث كان. فلا يمكن لأي مفهوم من هذه المفاهيم أن يتحيز في مرحلة زمنية معينة، فنقول -مثلاً- إن مفهوم الإيمان أو البر أو التقوى، هو خاص بمرحلة دون أخرى، كالاتجاهات البشرية أو الاصطلاحات المدرسية أو المذهبية. إذ يمكن للاصطلاح المدرسي أن يكون خاصاً

بهذه المدرسة في القرن الأول أو الثاني أو الثالث، وأن تظهر اصطلاحات أخرى جديدة. لكن المفاهيم القرآنية لا يمكن فيها هذا؛ لأن المفهوم القرآني وإن كان مفهوماً واحداً فهو يستمد إطلاقيته من إطلاقية الوحي نفسه، فله هذه الخاصية التي ليست لغيره، خاصة كونه وحياً مطلقاً مستوعباً للزمان والمكان والإنسان.

الخاصية الثانية وهي أن المفاهيم القرآنية مفاهيم مستوعبة، نسق مفتوح غير منغلق، ولهذا، استطاع الإسلام عندما جاء أن يستوعب كل الفضائل وكل المفاهيم التي لها صفة إيجابية في التراث الجاهلي العربي، أو حتى في تراث الأمم المخالفة للإسلام. إذن ليس هناك مشكل في الثقافة الإسلامية وفي المفاهيم الإسلامية أن تستوعب مفاهيم أجنبية على أساس أن تصح لهذه المفاهيم الأجنبية وظيفة أخرى داخل النسق القرآني أو داخل النسق الإسلامي عموماً. ولهذا، اختلف علماؤنا قديماً -علماء اللغة والأصول وغيرهم- في الألفاظ التي وقعت في القرآن، حيث قيل إنها ألفاظ عربية، وقيل أعجمية وقعت في القرآن، وقيل أعجمية تعربت، وهذا خلاف معروف عند اللغويين والأصوليين. مهما يكن من هذه الألفاظ كالعن والطور والاستبرق وغيرها، فاستعمال القرآن لها، أعطاها وظيفة جديدة، وأصبحت لها دلالة جديدة داخل النسق والسياق القرآني، بل أصبحت جزءاً من القرآن تتلى بتلاوته. ولهذا فخاصية الاستيعاب خاصة مهمة في المفاهيم الإسلامية، لأنها قادرة على أن تلتقط كل ما هو إيجابي. وهي موازية لإطلاقية المفاهيم القرآنية، أي إن لها هذه المقدرة على استيعاب كل إيجابي في الحضارات والثقافات والأديان واللغات والعادات.

الخاصية الثالثة أن المفاهيم القرآنية محفوظة بحفظ القرآن، لا يمكن أن يطرأ عليها التحريف أو الانتحال أو التغليب، فالقرآن محفوظ بحفظ أصوله وبحفظ كلياته، فهي محفوظة من هذا الجانب. ولتمسائل أن يتساءل: كيف يطرأ الخلل والتشويش على مفهوم محفوظ لدرجة الاختلاف المفرق؟ نقول: يكون ذلك إذا قصرنا نحن في فهم هذا المفهوم أو في التعرف على دلالاته وعلى

معانيه وعلى الحكم والأحكام المرادة منه، أو حملناه ما لا يحتمل من المعاني التي في أذهاننا انتصاراً لأهواء أو آراء معينة. أما المفهوم في أصله فهو محفوظ بحفظ القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. **الخاصية الرابعة** أن مفاهيم القرآن تامة، ولهذا، عندما نزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)، لم يكن المراد بها إكمال الجوانب التعبدية في الإسلام فقط، بل هو إتمام كل شيء في الإسلام بما في ذلك كلمات الإسلام، كما قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (الأنعام: ١١٥)؛ فهي تامة بمعنى أننا لا يمكن أن نجد بناء أكمل وأحسن وأصح من البناء القرآني للمفهوم، لأنه من الله تعالى، ولأنه وحى، ولأنه مطلق، ولأنه محفوظ... وهذه كلها خصائص لا يمكن أن تكون من الألفاظ والمفاهيم التي بينها فكر الإنسان النسبي القاصر المتغير حسب الزمان والمكان.

الخاصية الخامسة أنها سننية نظامية، أي إن بناءها المنهجي بناء نسقي منتظم، منضبطة مواقعه وتراكيبه ودلالاته ضمن نسق كلي ناظم، ثم ضمن أسواق فرعية وجزئية تفصيلية كما قال عنه منزله ﷺ: ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (هود: ١)، وكما قال عنه المنزل عليه ﷺ ضمن الحديث المشهور: "لا تنقضي عجائبه ولا يخلق من كثرة الرد" (رواه الحاكم). وهذه البنائية أو السننية النظامية - كما يذهب بعض أهل العلم - في كتاب الله تعالى، معادلة للسننية وللنظام الموجود في خلق الله تعالى. فمواقع الآيات في الكتاب كمواقع النجوم والكواكب في أفلاكها ومداراتها، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ * لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ * تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الواقعة: ٧٥-٨٠). ولذلك نفوا الترادف والتكرار في ألفاظ القرآن والقول بالنسخ والغريب فيه، وما إليها من القضايا الموروثة من غير تدقيق وتمحيص منهججي في ضوء البنائية والنسقية والنظام الذي نحن بصده.

ولقد ارتبطت آيات النص بآيات الآفاق والأنفس ارتباطاً وثيقاً، وجعل بعضها دالاً على بعض، كلها تهدي إلى الحق وترشد إليه. وقصدنا بإيجاز في هذا الجانب، التنبيه على الوحدة الكلية - مفهومية كانت أم قيمية أم تشريعية - من مدخل البناء النسقي المنتظم مهما تفرعت قضاياها، وإلى أن أي عمل - كيفما كان - إذا لم يأخذ بعين الاعتبار أن ثمة منهجاً سننياً حاكماً لتفعيل الآيات في الأنفس والكون والمجتمع - إصلاحاً أو تغييراً - لا يمكنه أن يعود بفائدة أو ثمار مرجوة. ولن يكون في أحسن أحواله إلا كسائق سيارة لا دليل سياقة معه يصره بالعلامات المبتوثة في كل مكان، فانظر ما سيصنع من الحوادث ويلحق من الأضرار بنفسه وبغيره. وذلك للأسف شأن كثيرين ممن يتصدون للتغيير باسم الإسلام فيسيؤون وهم يظنون أنهم يحسنون.

إن كل مفهوم قرآني له هذه الخاصية السننية النظامية والمنهجية الآياتية، التي تحدد وظيفته البنائية الخاصة به ووظيفته الكلية ضمن المجموع النسقي للمفاهيم، يشتغل لذاته ولغيره في الوقت نفسه. وذلك أشبه ما يكون بعمل أعضاء الإنسان، فكل عضو له وظيفة خاصة لا يقوم بها غيره، ووظيفة عامة يقوم بها مع غيره في شكل نظامي مطرد إذا تعطل وقع الخلل.

الخاصية السادسة، أن المفاهيم القرآنية عملية وواقعية أو حركية، وذلك باعتبار أنها نزلت إلى إنسان مكلف مستخلف مدعو إلى أن يتمثل هذه المفاهيم حسب جهده وطاقته، وأن يبني بها حضارته وأن يعمر بها الكون، وأن يحقق بها استخلافه ووراثته. فهي مطلقة كونية، لكنها أيضاً عملية واقعية ودينامية حركية، توجه وتسدد عمل الفرد والجماعة على حد سواء، وتصلح من حال الفرد والجماعة على حد سواء.

هذه بعض من الخصائص التي تميز المفاهيم القرآنية عامة وإن كانت هناك خصائص أخرى أكثر تفصيلية يمكن استخلاصها باعتبارات وترتيبات مختلفة. ■

(٥) جامعة السلطان مولاي سليمان، كلية الآداب، بني ملال / المغرب.

إن أعظم الحرائق يأتي من عود ثقاب واحد. فإذا استصغرت قليلاً من الانحراف فلن تستعظم الكثير منه. وربما خرجت عن الخط، وتخلّفت عن الركب، وكانت سقطتك مريعة، كمن يسقط من أعلى المآذن إلى قيعان أعمق الآبار.

الموازين

الكلمة والإنسان

بكلماتك حياة جديدة، ووضعت في صدري خلال دقائق قلباً جديداً، ثم حجب وجهه بيديه وطفق يبكي بكاءً مؤراً.

فلا جرم أن يرى أدباء العربية في "القرآن" معيّنًا لا ينضب من جماليات المعاني والأفكار، فيستقي كل واحد منهم ما يقوّم به لسانه، ويعدّل به ميزانه، ويصوب به أفكاره، ويعلي به من شأنه، ويسامي به من خياله،

ببناء هدامة هي الكلمة، تُحيي وتُميت، ترفع وتخفض، مشعلة نارًا، ومطفئة أوارًا، تُقيم وتُقعد، تهدي وتُضل.

روحها من روح قائلها، وحياتها من حياته، تعظم بعظمته، وتسمو بسموه، وتجمل بجماله. إنها مغيرة نفوس، ومقلبة قلوب، وسامية بأرواح، ومستولية على عقول. في حوار بين صديقين قال أحدهما للآخر: "وهبتني



ما من أديب في العربية، إلا وله من القرآن نصيب قلّ أو أكثر.. فالقرآن هو كلمة الله الأخيرة لأهل الأرض، فلا كلام له سبحانه بعده، جمّع فيه الأزمان والأجيال، وقارب بين الأزال والأباد، وبشّر بالسرمديات وبالخلود والأبديات.

حراه

إننا لا زلنا نفتقد في أدبائنا -إلا قلة منهم- ذلك الألم الروحي المقدّس الذي نعتبره تريباقًا للحماقات والتفاهات التي يتردّى بها إنسان هذا العصر، هذا الألم الذي يفجّر في الوجدان قوى الإبداع الأدبي والفكري، ويسمو بخيال الأديب إلى الشفافيات الجمالية في الطبيعة والكون والحياة والوجود وفي كل شيء موجود، والتعبير عن هذا الألم بصدق وإخلاص، هو الكفيل بأحداث التحوّل السامي والتطهر الروحي والفكري في الإنسان. فأدباء "الألم العظيم"، ترتفع بهم الأمم إلى مستويات عالية من الإدراك ومن حيوية العقل واشتعال الوجدان، وتفتح الخيال وازدهار الآمال، وتمنحهم قدرة على مقاومة الخيبات والإحباطات التي تعترض طريقهم أو تعترض طريق شعوبهم وأوطانهم. ويحسن بنا أن نُشير في هذا المقام إلى مثال قريب من أمثلة "رجل الألم العظيم" في تركيا اليوم، ممّن يجمع بين عبقرتيّ "الدين" و"الأدب"، وهو العالم الأديب أو الأديب العالم الأستاذ الكبير "فتح الله كولن". فالآلام هذا الرجل التي فجّرت فيه هاتين العبقريتين، إنما هي آلام أمة الإسلام وأحزانها؛ هذه الآلام والأحزان التي استوطنت روحه، وشغلت عقله ووجدانه وكلّ ذرّة من دمه، فأتسعت كتاباته باتّساعه الذهني وبإيماضاته الأدبية وسانحاته الروحية. فعندما نقرأه نشعر بأننا نقرأ أدبًا فكريًا عاليًا في أفكاره، أو نقرأ فكريًا دينيًا ثريًا في بلاغته وقوة تأثيره. لقد تألم "كولن" أشد الألم وهو يرى ضحالة فكرية تنتاب الأفكار، وكسلًا روحيًا مستشريًا يتسبّب في إبقاء إرادات التغيير مشلولة كسيحة ليس بمقدورها أن تكتسح العادي والمكروور وتأتي بالإبداع والتجديد، وأن سبر الأغوار في ذاتية الأمة أصبح آخر ما يفكر به المفكرون والقائمون على فكر الأمة وضميرها الثقافي، وقليل هم

ويهدب به من أذواقه، ويرهف به من أحاسيسه ومشاعره. فما من أديب في العربية إلا وله من القرآن نصيب قلّ أو أكثر. فالقرآن هو كلمة الله الأخيرة لأهل الأرض، فلا كلام له سبحانه بعده، جمّع فيه الأزمان والأجيال، وقارب بين الأزال والأباد، وبشّر بالسرمديات وبالخلود والأبديات. في كلماته قوّة من مطلق قواه، وعظمة وجلال من مطلق جلاله وعظمته، وومضات مهيبت من مطلق أنواره، وفيها من سبحات وجهه الكريم ما يحرق الأفئدة، ويهيج الأشواق، ويستنزف اللوعات دماءً، ويبتعث الأثبات صراخًا: "إن هذا القرآن نزل بحزن، فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتابكوا" (رواه ابن ماجه).

ولا شيء يستفز العربي ويجعله يهبّ من هجعتة كالكلمة البليغة؛ فهي كالروح الوضأة تشعل في وجدانه هواجس اليقظة والانتباه، وتلهب فيه حماس الإقدام والاندفاع، فيرى ما لم يكن يراه، ويحس بما لم يكن يحسّه ويشعر به. فالكلمة البليغة عند العربي لها في نفسه من القدسية كقدسية أي شيء يقدّس، ومن التعظيم كأى شيء عظيم، الأمر الذي جعل من مولد شاعر في قبيلة من قبائل عرب الجاهلية عيدًا احتفاليًا يستدعي ترقية التهاني من قبل القبائل بعضهم للبعض الآخر. وليس اعتباطًا أن يختار عرب الجاهلية أنفس وأعظم ما قال شعراؤهم ليزينوا به جدران الكعبة أقدس بيت يحجّون إليه ويظوفون به، وكأنهم يرمزون بذلك إلى امتزاج العبقرية الدينية بالعبقرية الشعرية. ومن هنا جاء نعتهم للقرآن: "قمة ما عرفه العرب من بلاغة بالشعر ولمحمد ﷺ بالشاعرية".

إن العذاب الذهني الذي لا ينفك يشعل جحيماً متسعراً في أرواح أولئك العظماء من رجال الفكر والأدب، لا يُعبّر عنه إلا بفخامة بلاغية، وكلمات مستقطعة من جمرات الروح المتسعرة. فالكلمة لا تكون بليغة إلا إذا كان المضمون الفكري بليغاً. فقد انتهت في هذا العصر -وإلى الأبد- بلاغة الألفاظ، وانتهت -وإلى الأبد- كذلك التقعّرات اللفظية التي شغلت أدباء العصور الميّنة من تاريخ الأمة، والتي يمكن وصفها بأنها جعجعة بدون طحن.

أولئك الذين يرون أن أية بدايات حضارية أصيلة في أمتنا - كما يقول كولن - لا بد لها من روح ديني يحرك قواها الداخلية ويقود مسيرتها في أولى خطواتها، وإلا بقيت تتسول من مخلفات الحضارات البائدة والقائمة، مما ينسبها الرغبة في الأصالة والذاتية والخصوصية.

ويرى "كولن" أن الفشل في التعبير عن ذات الأمة وعن أصلاتها الدينية والفكرية، يؤدي - عاجلاً أم آجلاً - إلى التفجرات المجتمعية العشوائية، وإلى التطرف في الفكر والسلوك لدى الجماعات التي قد أنهكها السأم وأكل روحها العفن، والتي تقنتت على بقايا من جذور روحية تكاد تتحجر من شدة ما عانته من السكونية وعدم التفعيل والاستنهاض من زمن بعيد. إن تخلي المفكرين عن مسؤولياتهم الأخلاقية والأدبية في استنهاض قوى الأمة الذاتية، يشكل كثيراً من الخطر على مجمل حياة الأمة الروحية والحضارية. فتأثير النوابغ من أصحاب الطاقات الإبداعية،

ينتقل بريق طاقاتهم من نفس إلى نفس، ومن روح إلى روح، في تتابع مستمر قد يستغرق أماً طويلاً، وأجبالاً متلاحقة... ومهمة هذا التابع هو قيادة الإنسان والمجتمعات إلى أشكال أعلى من الحياة والفكر والسلوك. وهذه هي مهمة أصحاب الكلمات المبدعة من الأدباء والمفكرين الذين يعتبرون الأدب نوعاً من أنواع التربية الروحية والسلوكية. فالتنكر لنوابغ المجتمعات والتضييق عليه، يؤدي إلى تحللها وفسادها.

ومن هنا كانت أفكار "كولن" ليست بصدد تجميع تلامذة وأتباع، بل هي مكرسة - بالأساس - لإنشاء أنداد وقادة يتقدمون الصفوف، ويتسلمون المهام، ويتحملون الأعباء، ويطورون الأفكار، ويبتكرون ويجددون، ويمضون ولا يتوقفون... لأنه يؤمن بالإنسان وبقدراته الخفية، وطاقاته غير المنظورة... فأفكاره تسعى إلى تنبيه الإنسان إلى نفسه، وليس إخفاء الإنسان عن نفسه، إنه يدفع الإنسان دفعاً إلى السعة الهائلة التي يمتلكها في داخله من دون أن ينتبه إليها.

لقد كسر "كولن" قلمه من زمن بعيد ولم يعد يكتب به، فإذا أراد أن يكتب اتخذ من نزيف روحه وأوجاع

قلبه ولوعة فؤاده قلمًا يكتب به كلماته، فإذا بها تنزل على وجدانات القراء دون استئذان، وتحط على عقولهم لتشير فاعليتها وانفعالاتها، وتزيد من توهجها ومن قوة ومضها، وكأنه حين يكتب يعتصر قرائح السماء ورحيق الملائكة مداً لكلماته.

فكما أن "الكلمة المنطوقة" ما تكاد تغادر شفتي قائلها حتى تروح تفتش عن الأذن التي تشتهي أن تسمعها، وعن القلب العطش التواق إلى ما يروي عطشه، والعقل التوام الذي آن له أن يقوم منه، فكذلك قل عن الكلمة المكتوبة التي ما تكاد تغادر شفتي القلم الذي نطق بها حتى تنطلق إلى جميع الأجواء الثقافية والفكرية مفتشة عن يفتقر إليها ويجد فيها ضالته.

فلا أحد يستطيع أن يحول بين الكلمة الصادقة الحرة وبين جموع الأذهان والعقول والوجدانات والفهوم مهما كان بينها وبينهم من سلود وحدود، ففي الكلمة قوة غيبية خارقة تنفذ إلى الأماكن التي يصعب نفاذ أي نافذ غيرها.

فالقلوب الفائرة بطهر عواطفها وسمو خواطرها، والعقول المشتعلة بعظمة أفكارها، يسكت صاحبها، وتذهب هي لتستأنف حياة الفوارن والاشتعال في قلوب الآخرين وعقولهم. وحتى عندما تدفعنا الأيام إلى حافات الهلاك الروحي، فإننا سنجد فيها ما يساعدنا على الخلاص من هذا الهلاك والإنقاذ منه. ف"كولن" العالم الأديب، والأديب العالم، يقدم لنا الإحساس والفكر والشعور خالصاً نقياً ممزوجاً بروحانيته المرهفة المثقفة الخالية من نوازع اللحم والدم.

وهكذا نستطيع أن نقول ونحن مطمئنون إن ما يقدمه "كولن" إنما هو مزيج رائع من التنسك الروحي والإدراك العقلي، وبين ما يعطينا إيّاه المسجد وتعطيناه المدرسة. وهذا المزيج يبقي المسلم مستعداً ومستوعباً لأعلى الأفكار العلمية والحضارية، وفي الوقت نفسه يظل دائم التصعيد الروحي نحو آفاق أعلى وأسمى. ■

(*) كاتب وأديب عراقي.



الطلاق

وأثره على نفسية الطفل

ينبغي حفظها وحمايتها من كل سوء، وإلا لن يتم النمو البيولوجي والروحي بالشكل المرجو لأبنائهم. ولا بد من الإشارة في هذا الصدد، إلى أن الطفل يتلقى التربية أولاً من البيئة الأسرية التي ينشأ فيها ويتربّع، ثم ينتقل إلى بيئة تعليمية أخرى خارج الأسرة كالمدرسة والمجتمع الذي يعيش فيه.

والجدير بالذكر أن الأبوة والأمومة تتطلب مسؤولية كبرى ووعياً والتزاماً على الدوام. هذا وقد أشار القرآن الكريم إلى ضرورة الاهتمام بالأطفال، وبسط أجحة الحب والرعاية لهم، والعمل على تأسيس العيش الطيب لهم، وتلبية حوائجهم في هذه الحياة. بينت الدراسات أن الأطفال في الأسر المستقرة،

الطلاق هو أكبر تهديد يواجه الأسرة ويؤثر على مستقبل الأبناء والأجيال. فبدون جو أسري هادئ ومستقر ينعم فيه الطفل برعاية الأبوين، لن يكون بالوسع تنشئة جيل سليم، قادر على خوض غمار المستقبل، شاعر بالمسؤولية تجاه مجتمعه وأمته. وخشية من الآثار السلبية على الأطفال الذين يدفعون ثمنًا كبيرًا للذنب لم يقترفوه، وحرصًا على تأسيس عيشة رغيدة لهم، دعا كثير من الآباء والأمهات إلى محو فكرة الطلاق من الأذهان بالمرّة.

إن الأطفال هم أحوج المخلوقات إلى الاهتمام والرعاية. وكذلك الأطفال هم أمانة في عنق الأبوين

ينعمون بقدرات إدراكية تفوق بكثير قدرات أطفال الأسر المنفصلة... فيجب على الأبوين أن لا يغفلوا عن دور التربية التي تعدّ درعاً حصيناً يحمي أطفالهم من الأضرار والمساوئ، ومن جانب آخر يجب أن يعرفوا أن الأسرة التي تكثر فيها النزاعات وتسيطر عليها الآراء الفردية؛ تكون سبباً في تدهور معنويات أطفالهم وحالتهم الروحية.

إن الطلاق يؤثر على الأطفال أكثر من غيرهم؛ لأن المأوى الوحيد بالنسبة لهم هي الأسرة؛ يترّبون في كنفها ويتعلّمون فيها ما ينفعهم ويفيدهم في الحياة. بالإضافة إلى أن وجود الأم والأب تحت سقف واحد، يشعر الطفل بالسعادة الدائمة والأمان المستمر. أما النزاعات المتواصلة داخل الأسرة، يجعل الطفل ينظر إلى الحياة نظرة سلبية، وهذا بطبيعة الحال يؤدي إلى تزعزع عالمه الداخلي الروحي. أي، عندما يقوم الأب أو الأم بالانفصال رغبة في تأسيس أسرة أخرى أكثر سعادة وأمنًا، فإنهما يكونان -بشعور منهما أو بلا شعور- قد حوّلوا حياة طفلهما إلى عذاب وشقاء، وذلك أن تفكك الأسرة التي تعتبر صمام أمان في حياة الطفل، قد يُفرز مشكلات نفسية وروحية لديه في نهاية المطاف.

ولكي تتضح الصورة بشكل أفضل، تعالوا نستشهد بهذا المثال: حسن وحيد أسرته وعمره خمس سنوات، أبوه وأمه يعملان. وُلد في السنة الثانية من زواج أبيه بأمه، وعندما بلغ الثالثة من العمر، بدأت تظهر مشكلات في التفاهم بين أبويه. ورغم محاولة الأم والأب عدم إشعار حسن بهذه المشاكل، إلا أنهما كانا كثيرًا ما يفشلان في ذلك. وكلما يرى حسن ما يجري بين أبويه، ينتابه حزن عميق وخوفٌ يكاد يخرسه عن الكلام. وبعد سنوات قليلة تحوّل حسن إلى طفل عصبي تجاه زملائه في الروضة، كما أصبح طفلاً سريع البكاء والغضب، ثم بدأ يعاني من اضطراب في تناول الطعام وصعوبة في النوم، بالإضافة إلى تصرفاته الطفولية التي أصبحت تظهر بشكل ملحوظ. لقد تغيرت سلوكيات حسن نتيجة النزاعات التي شاهدها بين أبويه. والنتيجة كانت أن قرّر الأبوان الطلاق، وأخبرا طفلهما بذلك. وبعد تنفيذ

القرار تم الانفصال بين الأبوين، الأمر الذي ضاعف الخوف عند حسن، وجعله يضطرب ويقلق من فقدان أحبابه ومن البقاء وحيداً في حياته. لذا تمسك بأمه بشدة ورفض الانفصال والابتعاد عنها. وفيما بعد عاش حسن مع أمه، وكان أبوه يزوره في أوقات معينة.

ما ورد في هذه القصة هو دليل على أن قدرًا كبيرًا من مشكلات الأبوين في مرحلة الطلاق، ينعكس على نفسية الطفل وبشكل ملحوظ، ولكن ردود الأفعال تختلف وفقًا لعمر الطفل. إذن، يجب رعاية حالة الأطفال النفسية عند الطلاق وبعده، ومن الأفضل أن لا يكشف الآباء والأمهات عن مشكلاتهم أمام أطفالهم قبل الطلاق أبدًا، وأما بعد الطلاق فعليهم أن يبذلوا قصارى جهدهم في تخفيض سلبات الطلاق على الطفل إلى أدنى حد. ثم إذا كان الطلاق سيئتهي بشقاء الأطفال واكتئابهم الدائم، فعلى الأبوين أن يقدموا مصلحة طفلهما على مصلحتهما الشخصية بلا تردد.

وينبغي علينا نحن الآباء، أن لا نكون سببًا في شقاء أطفالنا وتدمير حياتهم، بل ينبغي أن نتغلب على مشاكلنا العائلية بالهدوء والتروّي، ونُبعد أنفسنا من الوقوع في مآزق لا مخرج لها. أما مشكلات الأطفال النفسية المحتملة، فعلى تحليلها في حينها ووقتها المناسب، والمبادرة إلى حلّها بأفضل الطرق. ثم لا بد من القيام بكل ما يمكن فعله لئلا يتدهور العالم الروحي لأطفال لم يتخطوا مرحلة النمو بعد؛ إذ إن الأطفال الذين يعانون من تجربة انفصال الأبوين، تظهر لديهم وجهات نظر خاطئة عن الزواج، أو تنشأ لديهم -فيما بعد- مشكلات نفسية في حياتهم الزوجية. لذا، على الآباء والأمهات قبل قرار الطلاق، أن يفكروا جيدًا بمصير أطفالهم، وكذلك أن يستشعروا في قرارة أنفسهم نتائج القرار الذي يتخذونه حول الانفصال. ■

(*) كاتب وباحث تركي. الترجمة عن التركية: نور الدين صواش.



ريادة المسلمين في طب الأسنان

الفرشاة، من التعامل مع المعجون الطبي الذي يدعم فعلها الميكانيكي بفعله الكيميائي. أما المسواك الطبيعي، فإنه يقوم بالفعلين الميكانيكي والكيميائي معاً، أي إنه فرشاة ومعجون، ومعجونه الطبي متغلغل بين أليافه، مندمج مع خلاياه. وهو في الوقت نفسه، ليس له محذورات المعجون الطبي المستخدم مع الفرشاة، والذي كثيراً ما يعيق عملية التنظيف ويحول دون وصول أشعار الفرشاة إلى داخل الميازيب اللثوية.

إن المسواك الطبيعي النباتي، يحوي خلاصة تعطي الفم رائحة زكية وطعمًا مستحسنًا، فضلاً عن أن فيه بعض المواد القابضة -كالعفص- تشدّ اللثة وتنشط دوران الدم فيها، وهناك خلاصات أخرى نباتية لطيفة تستعمل مضادة لعفونة الفم بدرجة خفيفة. وقد عرفت خصائص عود الأراك فصار يدخل في المستحضرات

طب الأسنان، شأنه شأن غيره من العلوم الطبية، كانت له منزلة مرموقة في دائرة الاهتمام العلمي الإسلامي. ولو راجعنا تاريخ المسلمين الطبي، لوجدنا أن النبي والطبيب الأول محمداً ﷺ، قد وضع معالم الطريق المؤدية إلى حماية الأسنان ووقايتها. أليس هو القائل: "ما لي أراكم تأتونني قُلْحًا، استاكوا" (رواه الإمام أحمد)، "فلولا أن أشقّ على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة" (رواه البخاري)؛ و"القُلْح" هم المصابون باصفرار الأسنان. والقائل أيضاً: "السواك مطهرة للفم، مرضاة للرب" (رواه ابن ماجه).

فما هو السواك الذي حض عليه رسول الله ﷺ؟ فمنذ حوالي خمسة عشر قرناً، لم يكن هناك ما يسمى فرشاة أسنان، بل كان هناك أداة تدعى "المسواك". والفرشاة العصرية في حد ذاتها تعتبر مسواكاً لكنه مسواك صناعي، ولا بد لمعظم الناس حين استعمال هذه



ذات الأصل النباتي.

ولو تتبعنا ما قدمه المسلمون في مضمار طب الأسنان، لوجدنا الكثير؛ فأبو بكر الرازي يوصي بتحاشي الحموض بسبب سوء تأثيرها في عناصر السن، وأوصى بعدم اللجوء إلى القلع قبل استنفاد وسائل المعالجة كلها، وأوصى أيضاً بتشريط اللثة وتسكين الآلام عن طريق الأفيون أو عطر الورد. والرازي يلجأ إلى المقبضات لتمكين السن ومنع اهتزازها، وينصح بسد الحفر والنخرات السنوية بالمسك والشاب بعد تنظيفها. كل هذا يؤكد ممارسته ووعيه ودقة تشخيصه في مجال طب الأسنان.

وأبو الحسين بن كيشكرايا طبيب البيمارستان العضدي، وتلميذ سنان بن ثابت بن قرة، وأحد الأطباء المشهورين في القرن الرابع الهجري، يقول في كتابه "الكناش في الطب": "ربما حدث البخر من فساد يحدث في الضرس أو في سن متآكل، فيجب أن نقلع ذلك الفساد، ويصير فيه ما يصلح فساده من السنونات وصفته في باب علاج الفم والأسنان.

وربما حدث البخر من بلغم قد فسد وبقي في المعدة، وعلاجه يكون بالقيء؛ بأن نأكل السمك المملوح قبل القيء ولا نشرب الماء حتى نعطش عطشاً شديداً، ثم نشرب ما يهيج القيء، كالشب، والفجل المطبوخ، والملح الأندرائي، فإنه يخرج ذلك البلغم العفن. ثم نستعمل بعد ذلك شرب الصبر والأيارج فيقرأ فإنه ينقي المعدة". وابن سينا المكنى بأبي علي، والملقب بالشيخ الرئيس، درس الطب على عيسى بن يحيى، فنبغ وأصبح مرجع الأطباء وهو في السادسة عشرة من العمر. وكان للاختبار تأثير طيب في مقدرته الطبية، قال ابن سينا: "ثمانية عشر شهراً ما نمت فيها ليلة واحدة بطولها، أستعين على عجزتي بالابتهاج إلى الله فيهديني، وعلى استسلامي إلى النعاس بقدرح يوقظني، ومتى أغمض أجفاني، تكشف لي المشاكل العويصة عن حلول لم تكن اليقظة لتهديني إلى مثلها".

وابن سينا هو أشهر جميع أطباء العرب، بلغ من التأثير في عالم الطب عدة قرون ما لقب معه ب"أمير



السنية منذ ثلاثين سنة، وذلك بأن يدق وتؤخذ خلاصته المعروفة باسم مسحوق السواك.

علماء في طب الأسنان

وفضل المسلمين في ميدان طب الأسنان كبير، إذ إن كل طبيب من أطباء المسلمين على وجه العموم كان يعالج سائر جسم الإنسان، فوضعوا المؤلفات ووجدوا طرائق جديدة لمعالجة الإشكالات والأمراض في الفم عامة والأسنان خاصة. من ذلك أن لهم مساهمات في المعالجات اللثوية ومداواة الأسنان والجراحات الفكية والوجهية، إضافة إلى نصائحهم التي يمكن إدراجها ضمن ميدان طب الأسنان الوقائي. بمعنى آخر إن كل الأفكار الأساسية التي تقوم عليها معالجات طب الأسنان الحالية والوقائية، كان لها بديل عند الأطباء المسلمين القدماء.

الأطباء المسلمون نجحوا في تقويم الأسنان وعلاج تشوهات الفكين بطرق مبتكرة، وتوصلوا إلى استخدام جسور الأسنان الذهبية والفضية، وأدوات ضغط اللسان. وعرف الأطباء المسلمون أيضاً طريقة حشو السن، ووصفوا مواد تخلط لتصبح تركيباً يحشى به السن بعد حفرها. وكان هناك ما يُسمى بتحنيط اللب، أو ما يعرف حالياً باستئصال اللب. وقد تختلف المواد التي كانوا يستخدمونها عن المواد المستخدمة حالياً، لكن الفكرة الأساسية هي التي قامت على تجريف النخر وإزالته ووضع مواد حاشية مناسبة متوافرة لهم. ولعل أهم المواد المستخدمة في حشو السن؛ الشمع، وبرادة العقيق، والعاج، إضافة إلى بعض المعادن أو المواد

الطب". ويشمل كتابه المهم "القانون" على علم وظائف الأعضاء، وعلم الصحة، وعلم الأمراض، وعلم المعالجة والمادة الطبية، ووصفت فيه الأمراض بأحسن مما وصف به في الكتب التي ألّفت قبله.

الوقاية من مرض الأسنان

كان ابن سينا في مقدمة العلماء الأطباء الذين قاموا بتنسيق المعلومات الطبية ووصفها، بالإضافة عليها من خلال تجاربه التي دونها في كثير من كتبه، حيث قام ابن سينا بتعريف الطب وتقسيمه تقسيماً علمياً واضحاً. ومن بين جملة ما بينه، الفك والأسنان وأمراضهما، وكيفية مداواتهما، وقد قال عن حركة فتح الفك: "إن حركات الفك إلى الأسفل لم تحتج إلى أن تكون فوق ثلاث، حركة فتح الفم والفجر، وحركة الانطباق، وحركة المضغ والسحق".

وقد أطل في شرح هذه الحركات، ثم تحدث عن الوقاية من مرض الأسنان، حيث وضع قواعد للحفاظ عليها يندرج تحت باب الطب الوقائي:

من أحب أن تسلم أسنانه، فيجب أن يراعي أشياء منها:
١- أن يتحرز عن تواتر الطعام والشراب في المعدة لأمر في جوهر الطعام، وهو أن يكون قابلاً للفساد وسريعاً، كاللبن، والسّمك المملوح، والصحناء أو لسوء تدبير تناوله.

٢- أن يتجنب مضغ كل علك، وخصوصاً إذا كان حلواً، كالناطف والتين والعلك.

٣- اجتناب كسر الصلب.

٤- أن يتجنب كل شديد البرد وخصوصاً على الحار، وكل شديد الحر وخصوصاً على البارد.

٥- أن يديم تنقية ما يتخلل الأسنان من غير استقصاء وتعديلاً إلى أن يضر بالعمور وباللحم الذي بين الأسنان فيخرجه أو يحرك الأسنان.

٦- أن يتجنب أشياء تضر الأسنان بخاصيتها، مثل الكراث؛ فإنه شديد الضرر بالأسنان، وسائر ما ذكرنا من المفردات.

وعلى ما ذكره ابن سينا، يكون سهلاً على الطبيب تشخيص المرض بدقة، وكان الباحث في الطب يقف

أمام طبيب عظيم من أطباء هذا العصر. حيث يتبع معظم أطباء اليوم الطريقة نفسها -تقريباً- في تشخيص المرض مع تقدم التقنيات الطبية ووسائل التشخيص.

وكان ابن سينا واضحاً ودقيقاً في تحديد الغاية والهدف من مداواة نخور الأسنان حين قال: "الغرض من علاج التآكل، منع الزيادة على ما تأكل، وذلك بتقنية الجوهر الفاسد منه، وتقليل المادة المؤدية إلى ذلك" وهذا مبدأً أساسياً في مداواة الأسنان.

سبق ابن سينا علماء العصر الحديث في مجال تنقيب الأسنان وتآكلها، فبينما كان يعتقد في أوروبا -في القرن الرابع عشر- أن سبب نخر الأسنان وتآكلها هو الديدان والأرواح الشريرة -والتي كانت كثيراً ما تعالج بوسائل السحر والشعوذة وتلاوة الصلوات الخاصة- كان ابن سينا يشخص هذا المرض -في القرن العاشر الميلادي- التشخيص العلمي الصحيح، يقول حرفياً: "إن سبب تثقب الأسنان وتآكلها هو رطوبة رديئة فيها؛ ويقصد بهذه الرطوبة، الجراثيم المختلفة الناشئة عن مختلف المواد الغذائية الموجودة في الفم.

ووصف العلاج الصائب لتلك الرطوبة فقال: "إن الغرض من علاج التآكل هو منع الزيادة على ما تأكل، وذلك بتقنية الفاسد منه وتحليل المادة المؤدية لذلك، وأن تُحشى بسلة وسعد، أو بسك ممسك وحده، فإنه يمنع التآكل ويسكن الألم".

وقد وصف ابن سينا طريقة لرد خلع مفصل الفك السفلي، ولم يطرأ على هذه الطريقة أي تعديل يذكر حتى عصرنا.

كما عالج الأسنان اللبنية بإذابة زرنبيخ أحمر بزيت، يغلى ويقطر منه في أصل الضرس، وهذه المادة لا تزال تستخدم حتى يومنا هذا.

كما استخدم الكافور في الحشو، فكان نافعاً ومانعاً لزيادة التآكل، ومسكناً للألم، كما أوصى أن يكون الحشو برفق، لأنه يزيد الوجع. ■

(*) باحث في التراث العربي والإسلامي / مصر.



الأخلاق الاجتماعية في الدعوة النبوية

لقد كانت تركية النفس وبناء الأخلاق من صميم دعوة الرسول ﷺ، جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (الجمعة: ٢). وقد جاءت تشريعات الإسلام المختلفة لتقييم العلاقة الحسنة بين أفراد المجتمع، وبين العائلة الواحدة، فقال ﷺ: "الْبِرُّ حَسَنُ الْخُلُقِ" (رواه الإمام أحمد). وركز الإسلام على تحسين علاقة الأبناء بأبائهم والآباء بأبنائهم، حيث كان الأمر الإلهي ببر الوالدين يعني إصلاح العلاقة بين جيل وآخر، وإشاعة التراحم والتواصل. وقد كان بر الوالدين مقرونًا بطاعة الله تعالى كما قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الإسراء: ٢٣).

كما أكد القرآن على ذوي القربى وحُسن العلاقة

كانت محاولات الرسول ﷺ لتغيير مجتمع مكة من الداخل قوية وجادة، وذلك بمحاولته نشر الإسلام وما يرتبط به من شريعة وبناء أدبي وأخلاقي وترابط إنساني، وعلاقات حميمة بين أفراد المجتمع عمومًا؛ بداية بذوي القربى والآباء وأبنائهم، في تلاحم بين الدين والمجتمع والأخلاق. وقد تعنتت قريش ومنعت الدعوة ووقفت في وجهها، وحاربت رسول الله ﷺ وأذته وأصحابه، مما دفعه للبحث عن مكان آخر لإقامة المجتمع المسلم المميز بأدبه وأخلاقه وتلاحمه. فكانت الهجرة إلى المدينة المنورة بداية بناء المجتمع الإنساني المسلم الآمن، حيث توافد المهاجرون، وتآلفوا وتحالفوا وتآخوا مع الأنصار، ووجد بينهم ما عرف بنظام المواخاة الذي أظهر معادن المجتمع الصافي المتآخي.

ل

إن التشريعات والتطبيقات الأخلاقية في عصر الرسول ﷺ، ساهمت في ترابط المجتمع وتلاحمه، ومحبتة للرسول ﷺ ولما شرعه الله ﷻ.. ولم يقف تأثيرها عند ذلك العصر، بل امتدت بركتها في الأمة والإنسانية حتى يومنا الحاضر.

حراه

كما كان ﷺ يأمر بالرفق وهو من أسباب الألفة في الأسرة والمجتمع فيقول: "إن الله يحب الرفق في الأمر كله" (رواه البخاري)، وقد طبّق الرسول ﷺ الرفق واللين مع الصحابة كما قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، ومع الرفق واللين كانت محبة النبي ﷺ للأمة وحرصه عليهم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (التوبة: ١٢٨). كان ﷺ مثال الرحمة والعطاء وحسن الخلق، خبرته خديجة ﷺ وهدأت من روعه بعد نزول الوحي عليه، مذكرة بأخلاقه العالية: "كلا والله لا يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر" (رواه البخاري)، وفي ذلك تأكيد للأمة جمعاء: إن مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب للسلامة من مصارع السوء. ولما دخل ﷺ مكة فاتحاً، كان متواضعاً مطأطأً رأسه بلا فخر ولا خيلاء. وكان يقف مع المرأة الضعيفة والصبية، يسمع إليهم ويحدثهم ويقضي حوائجهم؛ ولعل حديث أنس ﷺ يشرح ذلك في قوله: كان رسول الله ﷺ يعود المريض، ويشهد الجنازة، ويركب الحمار، ويجب دعوة العبد، قال: وكان يوم بني قريظة على حمار مخطوم بجبل من ليف وعليه أكاف من ليف. وكان لا يأنف أن يُردف معه رجلاً آخر أو صبياً، فكان كثيراً ما يردف أسامة بن زيد ﷺ، ويردف بعض نسائه أحياناً، وقد قال ﷺ: "إن الله تعالى أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد" (رواه ابن ماجه).

ويعمل ﷺ مع أصحابه في السفر فيحتطب ويقوم

بهم في قوله تعالى: ﴿وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا﴾ (الإسراء: ٢٦). وكان رسول الله ﷺ على أعلى درجات الخلق كما وصفه الله تعالى في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: ٤)، لذا أمر الله سبحانه الناس بالتأسي به حيث قال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١)، وقد قال ﷺ: "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق" (رواه الإمام أحمد).

كان ﷺ متواضعاً؛ يعود المريض، ويتبع الجنازة، ويجب الدعوة، ويكره أن يقوم له الناس، يتواضع مع الكبار والصغار، حتى إن الغريب إذا جاء وجده بين أصحابه غير متميز بجلسته. كان جواداً يأمر بالجدود، كريماً يأمر بالكرم، عفيفاً يأمر بالعفّة والاستغناء عن الناس، شجاعاً حليماً يأمر بالحلم، رفيقاً يأمر بالرفق، طيب الرائحة نظيفاً يأمر بذلك... ويأتي على رأس ذلك كله حُسن الأدب مع الله ﷻ، ابتداء بالتوحيد والرضا بعبوديته، وحسن الظن به والتوكل عليه، والخوف منه والرضا بما قسم، ورجاء ما عنده، وتقواه وخشيته في الغيب والشهادة، والأنس بذكره وشكره وحسن عبادته... وقد قال ﷺ مذكراً بحسن الأدب مع الله: "فالله أحق أن يستحيا منه من الناس" (رواه البخاري). ومن حسن الأدب مع الله الإناابة والاستغفار والرجوع والفرار إليه سبحانه، ومن الآداب التي تربت عليها الأمة الإسلامية، حُسن الأدب مع رسوله ﷺ في حياته وبعد مماته.

وقد أمر القرآن أصحاب النبي ﷺ باتباع أمره وعدم معصيته فقال: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور: ٦٣).

كان ﷺ زاهداً في الدنيا ويأمر بذلك، اتصف بأعلى الصفات التي تحث على النظافة واحترام شعور الآخرين في مأكله ومشربه وملبسه وشعره ومظهره... وكان يأمر بإشاعة المحبة والسلام بين الناس، قال ﷺ: "ألا أخبركم بأحبكم إلي وأقربكم مني مجالس يوم القيامة؟ أحاسنكم أخلاقاً الموطأون أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون" (رواه البخاري).

بجزء من العمل كغيره من الناس. وقد شارك في بناء مسجده، كما شارك أهله في أعمالهم المنزلية، ويكون في مهنة أهله.

وكان ﷺ يدعو إلى الاعتدال في التوفيق بين الدنيا والآخرة، وأن لا تكون الدنيا وزينتها هم الإنسان الأول. ولقد كان ﷺ حريصاً على معرفة الصحابة لوجه لهم، ولذلك حدث معاذ بن جبل ؓ يوماً فقال: "يا معاذ والله إنني لأحبك، أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة أن تقول اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك" (رواه البخاري)، كما كان ﷺ يحث على كل ما يشيع المحبة بين الناس، كالزيارة والهدية، والابتسام التي قال عنها: "وتبسمك في وجه أخيك صدقة" (رواه الترمذي)، وعلمهم أن يحيي بعضهم بعضاً بالأفضل.

كما منع القرآن الكريم تمييز الناس بعضهم على بعض، وذكرهم بأصلهم الواحد، وحرّم أن يسخر بعضهم من بعض في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ (الحجرات: ١١)، وأكد على أخوة المؤمنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات: ١٠)، وأوجب الإصلاح بينهم في حال النزاع والوقوف ضد الباغي والاستمرار في الإصلاح في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ تِ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا﴾ (الحجرات: ٩).

كما نهى رسول الله ﷺ عن الغيبة، وعن احتقار بعضهم بعضاً: "بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم" (رواه الترمذي)، وأمر الله بالعفو والصفح عن الناس في قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (الشورى: ٤٠). كل هذه المساواة وتقدير الآخرين، والإصلاح بين المتنازعين، من أجل بناء مجتمع إسلامي أخلاقي متحد ومتربط. وقد أمر الله رسوله ﷺ بالرحمة وأوصى بها، وأمر الناس بالتواصي بها، وقد قال تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ

وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ (البلد: ١٧)، كما قال ﷺ: "إنما يرحم الله من عباده الرحماء" (رواه البخاري)، وأكد ﷺ على التراحم العام بين المسلمين وأن يسود المجتمع: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى" (رواه مسلم). تعد الصلاة من أهم العبادات عند رسول الله ﷺ، ومع ذلك فقد كان يتجاوز فيها رحمة بالأطفال؛ فقد روى البخاري عن أبي قتادة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: "إنني لأدخل في الصلاة فأريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه" (رواه البخاري). وكان ﷺ رحيماً بالرفيق والموالي، حيث جعل عتقهم من أعظم القربات ومن أبواب الكفارات المختلفة، كما ضيق الإسلام أبواب الرق بعد أن كانت مفتوحة في كل الشرائع والنظم زمن النبي ﷺ، إذ أوصى بهم ﷺ خيراً بقوله: "إخوانكم خولكم جعلهم الله تحت أيديكم، من كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم ويلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم من الأعمال ما لا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم، ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي، ولكن ليقل فتاي وفتاتي" (رواه الإمام أحمد).

إن هذا التراحم والآداب الإنسانية لم تقف عند المسلم والإنسان فقط، بل تعدتها تشريعات الإسلام إلى الحيوان ورحمته وإطعامه وعدم تعذيبه وقتله بلا رحمة وبلا فائدة، قال ﷺ: "دخلت امرأة النار في هرة حبستها حتى ماتت فدخلت فيها النار فلا هي أطعمتها وسقتها إذ حبستها ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض" (رواه البخاري).

كل هذه التعليمات في حقوق الحيوان سبق الإسلام بها العالم الحديث بقرون متعددة، وهي من رحمة الله التي شرعها لعباده المؤمنين به، المقتدين بهديه، ليكونوا رحمة لكل كائن حي، فما بالك بالإنسان. وقد أكد الإسلام على مساعدة الناس والوقوف مع المحتاجين منهم، ومنع الأذى عن بقية الناس رجالاً ونساءً، وأكد القرآن على حسن التعامل مع الجار والإحسان إليه، كما قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية
www.hiramagazine.com

المحطة الأخيرة

أبدًا يسافرون.. لا يَنون..

يقدمون إلى الأرض، وسراعا يمضون..

فرادى يأتون، وفرادى يرحلون..

خائفون مرعوبون،

من هول ما يلاقون..

جباههم معروقة،

وأرواحهم مهمومة..

ينادون:

"محطتنا الأخيرة أين ستكون؟

وكيف ستكون؟"

* * *

وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ
وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ ﴿النساء: ٣٦﴾، كما قال ﷺ: "من كان
يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره" (رواه البخاري)،
ولم يتوقف الأمر على المسلمين، بل تعداه إلى غيرهم
في أمر واضح وصريح في حسن التعامل معهم إن كانوا
مسالمين في قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ
يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ
وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ (المتحنة: ٨). وقد أمر ﷺ بالإحسان إلى
أسرى بدر وغيرهم من المشركين، فكان المسلمون
يطعمونهم مما يأكلون، ويحسنون التعامل معهم، مما
أثر فيهم ودفعتهم إلى الإسلام بعد ذلك.

كما كان الوفاء بالعهد من أهم أخلاق النبي ﷺ
والمسلمون عموماً، طبقها الرسول في حياته مع
أصدقائه ومع أعدائه. كما كان أداء الأمانة من أساسيات
الأخلاق التي بني عليها الإسلام، وكان ﷺ مضرب المثل
في قريش قبل البعثة وبعدها، حتى إنهم كانوا يسمونه
"الصادق الأمين"، وكان الصدق سلوكه وخلقه، وصفه
الله به في قوله: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ
هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (الزمر: ٣٣).

أما في مجال الأخلاق الاجتماعية الأسرية، فقد اعتنى
الإسلام ببنائها أخذاً في الاعتبار احتمالات الخلاف
وتشابك العلاقات، ولذلك جاءت الشريعة وتطبيقاتها
في مجال الأحوال الشخصية والشرائع الأسرية، بما في
ذلك علاقات الزواج والطلاق وما يصحبها من مشاحة
ونفقة ومتاع وحضانة وتربية ورعاية ومسؤولية... وجعل
هناك حقوقاً واضحة وحدوداً مرعية من كل جانب، لا
يظلم أحد أحداً، ولا يعتدي أحد على حق أحد.

ومن الواضح لكل ذي لب عاقل، أن هذه التشريعات
والتطبيقات الأخلاقية في عصر الرسول ﷺ ومن خلال
سيرته، ساهمت في ترابط المجتمع وتلاحمه، ومحبته
للسلوة ﷺ ولما شرعه الله ﷻ. ولم يقف تأثيرها عند
ذلك العصر، بل امتدت بركتها في الأمة والإنسانية حتى
يومنا الحاضر. ■

(*) جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض / المملكة العربية
السعودية.



الغضب النُودي منسوخ بالرحمة المحمدية

علاقة التوتر والصدام والصراع والمنافسة المفضية إلى الإضعاف والإقصاء، ثم علاقة التفاهم والتعاون والرغبة في تعميم الأمن والاستقرار والتنمية والسكينة. ولا يحتاج المتأمل إلى كبير تحليل ليدرك أن العلاقة الأولى هي المهيمنة، وقد أوجدت لها داخل كل كيان حضاري أو ديني أو مجتمعي فلسفة تشرعها، ومسوغات تسوقها، وخلفيات تاريخية وواقعية تقويها، وبيئة نفسية وفكرية تحتضنها.

والنتيجة الحتمية لانتشار تلك العلاقة، هو أن يشهد العالم مزيداً من التوتر والإقصاء والصراع، بل مزيداً من الدعوات إلى المواجهة والاحتراب، مما يجعل كل

لا معنى لـ"الأقومية" في الهداية، و"الأحسنية" في التفسير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩٠)، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان: ٣٣) إلا بأن تكون هدايات القرآن مرشدة للعقل الإنساني في عمارته للأرض خططاً وبرامج ومقاصد، ومرجعاً له تدافعاً وتنافساً واستباقاً للخيرات.

والمتأمل في العلاقة العمرانية للإنسانية اليوم -على اختلاف حضاراتها وفلسفاتها وقيمها وأهدافها- يجد أنها تنحصر على العموم الغالب في علاقيتين اثنتين:



الإسلام لا يقدم نفسه مشروعًا لملاحقة الكفار وإنزال اللعنات عليهم، لأنه يريد للبشرية جمعاء أن تسير في سبيل الفطرة والعمران الإنساني الاستخلافي الذي يليق بكرامة الإنسان، وأن ينعموا برحمة الله ويتذوقوا حلاوة الرحمة المحمدية.

حراء

نحکم بأنها منسوخة بالرحمة المحمدية. كيف ذلك؟
الثابت أن جل المفسرين، ذهبوا إلى أن دعاء نوح عليه السلام ذلك على قومه بالهلاك إنما جاء - كما يورد الطبري وغيره - بعد أن أتاه الوحي من السماء: ﴿وَأَوْحِيَ إِلَى نُوْحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ (هود: ٣٦)؛ مما يعني أن إقدام نوح عليه السلام على ذلك الدعاء إنما عن علم علمه عن ربه ﷻ، وهذا ما يذهب إليه الماتريدي في قوله: "فبما قيل لنوح عليه السلام: ﴿أَنْتَ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾ وقع له الإيأس من إسلام من تخلف عن الإيمان، فارتفع معنى الدعاء إلى الإسلام، فجائز أن يراد له الإذن بعد ذلك بالدعاء عليهم بالهلاك، فيدعو إذ ذاك".

ويضيف الرازي إلى ذلك العلم الثابت بنص الآية علمًا آخر ناتجًا عن الاستقراء، يقول: "فإن قيل: كيف عرف نوح عليه السلام ذلك؟ قلنا: بالنص والاستقراء، أما النص فقوله تعالى: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾، وأما الاستقراء فهو أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، فعرف طباعهم وجربهم"، وهو ما ذهب إليه الزمخشري، والنيسابوري، والشربيني، والقاسمي، وابن عجيبة وآخرون.

إلا أن المفسرين لم يتساءلوا عن موقف مقاصد القرآن والرحمة المحمدية من مثل ذلك الدعاء، ولم يبرزوا الحالة الخاصة في دعاء نوح عليه السلام، ولم يستخلصوا من ذلك قواعد تقي من جعل الغضب النوحى الخاص عامًا ينسحب على الإنسانية جمعاء في صيرورتها التاريخية بعد نوح وبعد جميع الأنبياء إلى يوم القيامة مهما عنت وتكبرت وانحرفت عن طريق الفطرة والهداية.

كيان يندفع في اتجاه مزيد من الاستقواء. وقد يجد المسلمون أنفسهم مضطرين إلى المواجهة والردود، بل قد يرفعون أكتفهم ضارعين لله بأن يدمر الكفار والأعداء واليهود والنصارى والملحدون والعلمانيين والمتربصين بهم... إلى غير ذلك من المواقف والدعوات التي من السهل أن تجد مسوغاتها في البيئة النفسية والفكرية الحاضنة لمظلومية المسلمين.

نحو تمثل حضاري لقاعدة "الغضب النوحى منسوخ بالرحمة المحمدية"

وبالعودة إلى القرآن الكريم استمدادًا للأقومية وتلمسًا للتفسير الأحسن، يقف الدارس على معطيات قد تكون معارضة للحالة النفسية وللبيئة الحاضنة لمشاعر الأمة اليوم. وقد تبعت جانبًا منها فوجدتها قابلة لأن تساغ ضمن القاعدة الحضارية الآتية: "الغضب النوحى منسوخ بالرحمة المحمدية".

ونقصد بالغضب النوحى، تلك المشاعر والأحاسيس التي تملك نوحًا عليه السلام، وأوقعت في قلبه "ملاً من دعوة قومه وضجرًا، واستولى عليه الغضب ودعا ربه لتدمير قومه وقهرهم"، وملأت وجدانه يقينًا حادًا بأن الأرض "تحتاج إلى غسل يطهر وجهها من الشر العارم الخالص الذي انتهى إليه القوم في زمانه. وأحيانًا لا يصلح أي علاج آخر غير تطهير وجه الأرض من الظالمين، لأن وجودهم يجمد الدعوة إلى الله نهائيًا ويحول بينها وبين الوصول إلى قلوب الآخرين".

وقد تفجرت تلك المشاعر من أعماق قلب نوح الحزين فصاغها دعاء قويًا: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَبَّارًا﴾ إِنَّكَ إِنْ تَذَرَهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿نوح: ٢٦-٢٧﴾.

ومع ما يسوغ هذه الحالة النفسية بسياق السورة نفسها - ما دام نوح قد لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وما دام قد دعاهم سرًا وجهرًا واستفرغ جهده في دعوتهم وإنذارهم - فإنها تبقى "استثنائية" بالنظر إلى مقاصد القرآن في الدعوة والهداية، وبالنظر إلى طبيعة الدعوة المحمدية، واستثنائيتها هاته هي التي تجعلنا

إن الكون كله يتحسر على كفر الناس وضلالهم
ومحاربتهم للنور. والتحسر فيه دلالة على
الشفقة والأسى والحزن، وليس فيه أي دلالة
على الغضب واللعن واستمطار العذاب والهلاك.

حراه

حقيقة أننا نجد عند الماتريدي كلامًا يستشف منه أن
الأصل استنكار دعاء نوح بذلك الدعاء، وهذا واضح
في قوله: "هذا كلام شنيع في الظاهر من نوح عليه السلام،
لأنه خارج مخرج الإنكار على الله تعالى، لو تركهم ولم
يهلكهم. وهذا يشبه قول من قال: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ
فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (البقرة: ٣٠)، وهذا أيضًا خارج مخرج
التكبر لله تعالى: أنه لو أبقاهم، أدى ذلك إلى إضلال
العباد، وفيه تقدم بين يدي الله تعالى؛ وذلك عظيم،
ولأنه ليس في شرط الألوهية إهلاك من عمله الإضلال.
ألا ترى أن إبليس اللعين وأتباعه جُلّ سعيهما في
إضلال بني آدم، ثم لم يهلكوا، بل أبقوا إلى الوقت
المعلوم؟ ولكنه يجوز أن يكون دعا عليهم بعد أن أذن
بالدعاء عليهم بالهلاك والبوار، فيكون الدعاء بالهلاك
على تقدم الأدب". لكن توجيه الاستنكار في اتجاه
استدراكات كلامية عقديّة غيبية، يجعلنا نسجل غياب
اهتمام المفسرين بتحليل دعاء نوح في ضوء مقاصد
القرآن وظلال الرحمة المحمدية في واقع حياة البعيدين
عن أنوار الهداية.

إن الظلم والإقصاء ومحاصرة الأمة في مهاوي الذل
والخنوع والاستسلام، والإمعان في جعلها ساحات
للاحتراب بالوكالة، وإشعال الفتن بين مكوناتها
وطاقتها... ذلك كله قد يسوغ الغضب النوحى، لكن
ذلك الغضب من شأنه أن يحجب عن الإنسانية طبيعة
المسلمين ودورهم في الحياة. ومعلوم أن القرآن يعلن
مقاصده بوضوح تام، فهو نور وهدى وبيان وشفاء، وهو
جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وليجعلهم
على كلمة سواء، وبعث فيهم رسولاً كان شعاره الذهبي:
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧)، و"إني
لم أبعث لعناً، وإنما بعثت رحمة" (رواه مسلم)، و"يا أيها

الناس، إنما أنا رحمة مهداة" (رواه الدارمي).

يقول المفكر أبو زيد المقرئ الإدريسي في شرح
كنوز هذا الحديث: "يكرر النبي ﷺ حقيقة كونه رحمة
عالمية، حتى تبلغ هذه الحقيقة بالتركرار إلى العموم
بالإلحاح فتغرس في وعيهم، ويخاطب بها العالمين
لا قومه فقط؛ (أيها الناس)، ويعبر بالمصدر لا بالصفة؛
(الرحمة) للإطلاق والمبالغة، ويعلمها بدون مقابل مجاناً
لوجه الله لا يريد بها جزاءً ولا شكوراً، ولا يطلب مقابلاً
لها على عظمها نعمة (مهداة). ويستعمل أداة الحصر
ليبين أنها رحمة خالصة لا منغص لها ولا شائبة تشوبها؛
(إنما)، ويعلم بها، يدلل عليها، ينادي (يا أيها)... ست
حقائق عظيمة تجتمع في عبارة موجزة بليغة، كي لا
يتسرب لورثة رسالته من بعده أي شبهة احتكار أو علو
أو إقصاء، ولا يتشكك عموم المخاطبين بهذه الرسالة
بأنهم -مثلهم مثل من سبقهم إلى الإسلام- أحق
بهذه الرحمة وأهلها، إلحاح وتعميم وإطلاق وإهداء
وخلوص وإعلان، هذه هي الرحمة المحمدية".

ثم إن الغضب النوحى، من شأنه أن يضعف من تلك
الحقائق التي تشكل عمق الرحمة المحمدية، وقد يهبط
بها من العموم إلى الخصوص فيجعلها خاصة بالمسلم
ومن يسلك مسلكه، بينما الأصل أن الرحمة المحمدية
-بنص القرآن- تشمل عموم الناس، وتمتد إلى الحيوان
والنبات والجماد. وقد أوما الأستاذ فتح الله كولن بفهمه
المتدبر، إلى آفاق رحبة للرحمة المحمدية التي شملت
فيمن شملت، الكافر والمنافق، مع أن الثقافة المستمدة
من الغضب النوحى تجعل المسلم ميلاً إلى صب جام
غضبه على أولئك، والدعاء عليهم وعلى أمثالهم من
المنحرفين والمتأمرين، بالهلاك والبوار؛ يقول الأستاذ
فتح الله كولن: "كان رحمة للمنافقين أيضاً، فبسبب هذه
الرحمة الواسعة، لم ير المنافقون العذاب في الحياة
الدنيا، ولم يهتك الإسلام سرهم فبقوا بين المؤمنين...
كما استفاد الكفار من رحمة رسول الله ﷺ، لأن الله تعالى
كان يهلك من قبل الأمم الكافرة بسبب كفرها وعصيانها
هلاًكاً جماعياً، بينما رفع الله تعالى بعد بعثة نبينا هذا

إن الغضب النوحى، من شأنه أن يضعف عمق الرحمة المحمدية، وقد يهبط بها من العموم إلى الخصوص فيجعلها خاصة بالمسلم ومن يسلك مسلكه، بينما الأصل أن الرحمة المحمدية تشمل عموم الناس، وتمتد إلى الحيوان والنبات والجماد.

حذاء

الرُّسُلَ أَعْرَفْنَاهُمْ ﴿الفرقان: ٣٧﴾، ولم يوجد التكذيب من الأطفال وهو ما ذهب إليه الطبرسي وغيره. واسترسل آخرون في تقديم بعض العلل، مثلما نجده في قول أبي السعود: "أي إلا من سيفجر ويكفر فوصفهم بما يصيرون إليه، وكأنه اعتذار مما عسى يرد عليه من أن الدعاء بالاستئصال مع احتمال أن يكون من أخلافهم من يؤمن، منكر، وإنما قاله لاستحكام علمه بما يكون منهم ومن أعقابهم بعد ما جربهم واستقرأ أحوالهم قريبًا من ألف سنة.

ويقول القاسمي: "وقال بعضهم: ملّ نوح ﷺ من دعوة قومه وضجر، واستولى عليه الغضب، ودعا ربه لتدمير قومه وقهرهم، وحكم بظاهر الحال أن المحجوب الذي غلب عليه الكفر لا يلد إلا مثله، فإن النطفة التي تنشأ من النفس الخبيثة المحجوبة وترتّب بهياتها المظلمة، لا تقبل إلا نفسًا مثلها، كالبذر الذي لا ينبت إلا من صنفه وسنخه".

ويقول محمد عزة دروزة: "وقد تضمنت الآيات... حكاية مناجاة نوح ربّه بعد يأسه من قومه ودعائه على الكفار بالهلاك وعدم إبقاء أحد منهم، لأنهم بلغوا من العناد والجحود إلى درجة لا أمل فيها لصلاحهم وصلاح نسلهم الذي سوف يسير على غرارهم بتلقينهم، ثم حكاية دعائه لنفسه ولوالديه ولكل من آمن بدعوته ولكل مؤمن ومؤمنة".

ويقول الشيرازي ناصر مكارم في تفسيره "الأمثل في تفسير الكتاب المنزل": "وهذا يشير إلى أنّ دعاء الأنبياء ومن بينهم نوح ﷺ، لم يكن ناتجًا عن الغضب والانتقام والحقد، بل إنه على أساس منطقي، وأنّ نوحًا ﷺ ليس ممن يتضجر ويضيق صدره لأوهن الأمور فيفتح فمه

الهلاك الجماعي، فاستفاد الناس من خلاصهم من مثل هذا العذاب، فكان ذلك نعمة دينوية بالنسبة إلى الكفار".

الوعي بشمولية الرحمة المحمدية

إن الوعي بشمولية الرحمة المحمدية وتمثل أبعادها النفسية والتواصلية، من شأنه أن يجعل حالة الغضب النوحى حالة خاصة لا يجوز تعميمها، مع أن "عادة الرسل الصبر على أممهم" كما يقول محمد الأمين الشنقيطي، لكن الإشكال هو في كيفية إقناع العقل المسلم بهذا، كيف يمكن أن يدرك المسلم بأن الارتقاء في سلم النبوة ومقتضيات الختم الرسالي، تتضافر مع مقاصد القرآن، لتقدم لنا النبي محمدًا ﷺ راعيًا للرحمة وأستاذًا لها، ومعلم الأجيال كيفية تمثلها والإحساس بها والتعامل مع الناس وفقها على ضلالهم وكفرهم، والحرص على أن تشملهم الرحمة كما شملته، فيدعو لهم لا عليهم، ويرجو لهم الهداية بعد الضلال.

لقد شعر بعض المفسرين بنوع من الحرج بين يدي تفسيرهم لغضب نوح ودعائه على قومه، فراحوا يلتمسون المسوغات المنطقية للقبول بغضبه ودعائه، وذكروا في ذلك أحوالاً لم يرد فيها نص صحيح أو هي "تحتاج إلى نقل صحيح"، بينما الأصل أن يبقى ذلك كله حالة خاصة بنوح ﷺ، وأن ينتهوا حين يدركون أن السيرة النبوية تشهد بالرحمة العالمية التي امتدحها القرآن في نبيّه محمد ﷺ، إلى أن الغضب النوحى منسوخ بالرحمة المحمدية.

لنتأمل في ما أورده البغوي: "قال محمد بن كعب، ومقاتل، والربيع، وغيرهم: إنما قال نوح هذا، حين أخرج الله كل مؤمن من أصلابهم وأرحام نسائهم، وأعقم أرحام نسائهم، وأبسس أصلاب رجالهم قبل العذاب بأربعين سنة، وقيل سبعين سنة (لاحظ كيف أن المفسرين لا يذكرون في هذا أثرًا صحيحًا، وإنما هي استمدادات من الإسرائيليات)، وأخبر الله نوحًا أنهم لا يؤمنون ولا يلدون مؤمنًا، فحينئذ دعا عليهم نوح فأجاب الله دعاءه وأهلكهم كلهم، ولم يكن فيهم صبي وقت العذاب، لأن الله تعالى قال: ﴿وَقَوْمِ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا

الرسول ﷺ شهد له القرآن بأنه كان يتمزق ألماً وحسرة وإشفافاً على كفر قومه، مما يعني أن المعين الرحيمي لا يصدر عنه إلا شعور الرحمة ودعاء الرحمة وألم الرحمة.

حراء

بالدعاء عليهم، بل إنه دعا عليهم بعد تسعمئة وخمسين عاماً من الصبر والتألم والدعوة والعمل المضني".

وقد يصل التعليل حد الاختلاف والتناقض، فعند هؤلاء أن نوحاً ﷺ لم يغضب ولم يضجر ولم يضق صدره، بينما هو - عند آخرين - قد "أيس من إيمان قومه، وقنط من فلاحهم وصلاحهم"، ووجد "ملاً من دعوة قومه وضجراً، واستولى عليه الغضب، ودعا ربه لتدمير قومه وقهرهم".

ولم يكن هؤلاء المفسرون محتاجين إلى تأويلات وتعليلات ومسوغات، فحتى لو كان الدعاء بوحى من الله فلا يجوز - بمنطق الرحمة المحمدية - أن يحجب أحد عن أولاد الكفار وذرياتهم نور الهداية، ويجعلهم في زمرة الهالكين لكفر آبائهم، مع أن هذا يتعارض مع مقاصد القرآن في هداية الخلق، ويشوش على معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام: ١٦٤)، و﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر: ٣٨)، وقوله ﷺ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَبٌ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَزَيْنُهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ (الحجرات: ٧)، كما يشوش على القاعدة الفقهية القانونية الحضارية: "لا يؤخذ أحد بجريرة غيره".

ويقول الماتريدي: "والأصل أن الرسل عليهم السلام بعثوا لدعاء الخلق إلى الإسلام، وكانوا في دعائهم راجين الإسلام خائفين عليهم بدوامهم على الكفر، فيما قيل لنوح ﷺ: ﴿لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾، وقع له الإيأس من إسلام من تخلف عن الإيمان، فارتفع معنى الدعاء إلى الإسلام، فجائز أن يراد له الإذن - بعد ذلك - بالدعاء عليهم بالهلاك فيدعو إذ ذاك".

إن الرسول الكريم ﷺ يختار لنفسه - من ضمن عشرات الوظائف النبوية والغايات الرسالية - أن يكون

"رحمة" للإنسانية، أي إنه كما يقول فتح الله كولن: "بعث رحمة من قبل الله تعالى للناس أجمعين، ولم يبعث لكي يستمطر اللعنة والبلايا والمصائب على الناس، ولهذا تمنى رسول الله ﷺ اهتداء ألد أعداء الإسلام، وبذل كل جهوده ومساعيه لتحقيق ذلك".

والذين يشعرون اليوم أنهم يقتدون بالنبي الكريم، مطالبون على وجه الاستعجال:

- أن يتمثلوا جوهر الرحمة المحمدية في محيطهم الاجتماعي، وفي رؤيتهم إلى الآخر الذي يختلف عنهم عقيدة ومنهج حياة، فتكون دعواتهم لهم - لا عليهم - بالهداية والرشد والإيمان والمغفرة، مع بذل الجهد في ابتكار أحسن الأساليب، لإبلاغهم جوهر الرسالة صافية من مختلف الألوان التي تشكل الصورة النمطية المتداولة.
- وأن يحذروا من أن يتحولوا - دون وعي - إلى حواجز وموانع وجدران عازلة تمنع تسلسل الرحمة المحمدية إلى الإنسانية البعيدة عن نور الله تعالى.

- وأن يحذروا ثانياً من تلوين صورة الرحمة المحمدية بتبني خطاب الغضب التوحي الذي يدعو على المخالفين بالبور والهلاك، ويعتقد أن الآخرين مجرد مشروع "غنائمي" للمواجهة والعداء والقتال، لأن الجهاد الاستثنائي - في صورته القتالية - لم يكن ضدهم، وإنما من أجل فتح طريق النور أمامهم، ومن أجل أن يتمتعوا بالجنة في آخرتهم... حتى ليتمكن القول مع فتح الله كولن أن الرسول ﷺ "كان يفتح بحد سيفه الطرق المؤدية إلى الجنة، وهذا بعد آخر من أبعاد الرحمة التي بعث بها للعالمين".

سيرة نبي.. سيرة رحمة

والقارئ للسيرة النبوية، يتجلى له نسخ الرحمة المحمدية للغضب التوحي في أوضح مظاهره عند المشهد الرحيمي الرائع في الحدث التالي:

قالت عائشة ﷺ لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال: "لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد الليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى

ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلا بقرن الثعالب فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال ﷺ: فناداني ملك الجبال وسلم عليّ ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال له ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً" (رواه مسلم).

وهذا الحدث العظيم، يبرز كيف أن الحالة التي عاشها نوح ﷺ مع قومه دفعته إلى أن يدعو الله ﷻ لاستئصال نسل الكفار وإهلاك أعقابهم حتى لا يكون لهم وجود. وقد لا يكون ذلك الدعاء مخالفاً لدوره الرسالي في تلك المرحلة، لكن النبي ﷺ -ومع هول الأذى البدني والنفسي الذي تلقاه من الكفار- أعلن بين يدي الملائكة رغبته في أن يستمر نسل الكفار ليخرج من أصلابهم من يوحد الله ﷻ؛ لأن عالمية رسالته، وخاتمية دعوته، وعموم رحيمته، تقتضي نسخ "الغضب التوحّي" وإحكام "الرحمة المحمدية".

ومن جميل ما يلاحظ في مناسبة الحديث عن قاعدة "الغضب التوحّي" منسوخ بالرحمة المحمدية"، أن الرسول ﷺ شهد له القرآن بأنه كان يتمزق ألماً وحسرة وإشفاقاً على كفر قومه، وهذا واضح في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ﴾ (فاطر: ٨)، وقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء: ٣)، مما يعني أن المعين الرحيم لا يصدر عنه إلا شعور الرحمة ودعاء الرحمة وألم الرحمة، وإذا جاز اعتبار أن الرسول ﷺ انطبعت على نفسه أخلاق الرحمة الإلهية، فيمكن في هذا السياق أن نستحضر قوله تعالى: ﴿يَا حَسْرَةَ عَلِيٍّ الْعَبَّادِ﴾ (يس: ٣٠)، لنقول: إن الرسول الرحيم يتحسر على كفر العباد لتحسر الملائكة والمؤمنين من الثقلين. ويمكن أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول: إن الكون كله يتحسر على كفر الناس وضلالهم ومحاربتهم للنور.

والتحسر فيه دلالة على الشفقة والأسى والحزن، وليس فيه أي دلالة على الغضب واللعن واستمطار العذاب والهلاك.

والإسلام لا يقدم نفسه مشروفاً لملاحقة الكفار وإنزال اللعنات عليهم، لأنه يريد للبشرية جمعاء أن تسير في سبيل الفطرة والعمران الإنساني الاستخلافي الذي يليق بكرامة الإنسان، وليس له من فضل في محاصرتهم في دائرة القدر المحتوم الذي لا يخرج بهم من ضيق الكفر والإلحاد والضلال إلا إلى ضيق القبور ودرك الجحيم، وإنما له الفضل في أن ينعموا برحمة الله ويتذوقوا حلاوة الرحمة المحمدية. وسيشرف المسلمون شرفاً مخصوصاً -حقيقة لا مجازاً- إذا هم استطاعوا تسويق تلك الرحمة بين بني آدم أجمعين، متجاوزين الحواجز والعوائق التي يضعها شرذمة من فاقد الهوية الإنسانية في عالم السياسة والاقتصاد والإعلام. ■

(٢) مستشار في وزارة الأوقاف الكويتية / المغرب.

المراجع

- (١) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: عيسى البابي الحلبي، ٢٠٠٨.
- (٢) في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، بيروت-القاهرة، ٢٠١٠.
- (٣) الجامع التاريخي لتفسير القرآن الكريم (برنامج إلكتروني)، مؤسسة البحوث والدراسات العلمية، فاس، المغرب.
- (٤) النور الخالد: محمد ﷺ مفخرة الإنسانية، لمحمد فتح الله كولن، ترجمة: أورهان محمد علي، دار النيل، القاهرة، ٢٠١٠.
- (٥) أضواء البيان، لمحمد الأمين الشنقيطي، دار الحديث، القاهرة.
- (٦) روح المعاني، لمحمود الألوسي، تحقيق: السيد محمد السيد، وسيد إبراهيم عمران، دار الحديث، القاهرة.
- (٧) التفسير الحديث، لمحمد عزة دروزة، دار الغرب الإسلامي، تونس.
- (٨) تفسير الجيلاني (المنسوب إليه)، للشيخ عبد القادر الجيلاني، تحقيق: الدكتور محمد فاضل جيلاني الحسني، مركز الجيلاني للبحوث العلمية، إسطنبول.
- (٩) البحر المديد، لأحمد بن عجيبة، تحقيق: عمر أحمد الراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥.



إلى أين؟

أزرى بك الوجد، أم أودى بك السرف؟
وما لقلبك، كالبركان يرتجف؟
بين المسالك، لا نهج، ولا هدف
فيك الظنون - كما يهوون - واختلفوا
وقد تساوى لديه الدر والصدف
في لجة، ضل فيها الفكر والشرف
إلا نوائب، تستشري، وتنذر
طيف، مع الريح، أخفى لونه السدف
وما الحياة؟ فقالت: إنها الأكم

قالت: إلى أين، تستهدي ولا تقف؟
وما لعينيك، ذاب الجمر، بينهما؟
أراك تدلج، كالمسلوب، مُنطلقاً
تهامس الناس، عن نجواك، واختلفوا
فقلت: خلي سيلي، إنني شبح
أهيم، كالأمل الحيران، مُنسرِباً
والناس، ما الناس، إن لاموا وإن عذروا
فليتني، والنوى تهدي بسابحتي
قالت: عداك الردى، ما الموت؟ قلت لها

فقلت: ماذا يخاف المرء من عدم؟
كأس، شربنا بها الآلام، من قديم
وأعدل العدل، أن يُسقى سواسية
قالت: أفي الناس شرٌّ؟ قلت: شرُّهمو
ما في يديه، سوى الأحزان يبذرهما
وخيرهم، من جنى المعروف مُبتدراً
يظل - كالتُود- والدنيا تدور به
قالت: أرى المجد في الأسراب خافقة
وفي المدائن - كالأعراس- راقصة
فقلت: زيفُ أجاد الناسُ صنعتهُ
المجد في الخير، تُسديه وتشره
قالت: أرى البدر لا - كالبدر- مُنبهتاً
والريحُ سوداء، والأشجارُ ذابلةُ
أفي الطبيعة حزنٌ، أم بها برمٌ؟
قد تُبصر العين، ما في النفس من ظلمٍ
قالت: فما الحبُّ؟ قلت: الحبُّ أمنيةُ
ترنيمه، لم يُردد سحرها وتُر
أنغامها، في حنايا الصدر، خافقةُ
فيها من الليل، أطيافٌ مَوْرقةُ
قالت: حبتك الليالي، من تجاربها
وقد وعيت، من التاريخ عِبْرتهُ
وددتُ أنك لم تُمسك، على لَمٍ
وأيّن في الناس، من تُجديه فلسفةُ

إن كانت الغاية الكبرى هي العدم!!
وقد ذهبنا، ولم يذهب بها القدم
بها، الفتى المُزدري، والسيد العَلَم
من غره المال، والسلطان، والحشم
وليس في أصغريه، غير ما يصم
وصان قيمته، إن هانت القيم
مُنْصَر الوجه، في عرينه شَم
فوق الحصون، تدانّت تحتها القمم
وفي التماثيل، تستحيي بها الأمم
لما تجافتهمو، الأخلاق والذمم
نفس، تقمّمها الوجدان والكرم
والشهب، يبيض في أحشائها السقم
فهل سقاها اللّطي، أم جفت الدّيم؟
فقلت: نفسك، فيها الحزن والبرم
وتُبصر النفس، حتى والرؤى ظلم
شدا بها القلب، لا صوت ولا كلم
ولا تاوّه، في ترجيعها، نغم
ولحنها، ضرم في النفس يضطرم
ومن ندى الفجر، فيها الحُسن يتسم
ما ليس تحفظه، الأسفار والنظم
وغرد الشعر - من نجواك- والقلم
فقلت: قد يُلهم المُستلهم اللّم
أغنّته، إن أغنت، الأمثال والحكم؟

(*) شاعر من المملكة العربية السعودية.

حراء

مجلة علمية فكرية ثقافية

www.hiramagazine.com

مجلة علمية فكرية ثقافية تصدر كل

شهرين عن:

Işık Yayıncılık Ticaret A.Ş

İstanbul / Türkiye

HİRA DERGİSİ

İlim Düşünce ve Kültür Dergisi

صاحب الامتياز

فكرت يشار

المشرف العام

نوزاد صواش

nsavas@hiramagazine.com

رئيس التحرير

هانئى رسلان

مدير التحرير

أحير أشيوك

المخرج الفني

مراد عرابجي

المركز الرئيس

HIRA MAGAZINE

Bulgurlu Mah. Bağcılar Cad.

No:1 Üsküdar

İstanbul / Turkey

Phone: +902163186011

Phone: +902165221144

Fax: +902164224140

hira@hiramagazine.com

مركز التوزيع

دار النيل للطباعة والنشر

٢٢ حـ جنوب الأكاديمية - التسعين الشمالي - التجمع

الخامس - القاهرة الجديدة

تليفون وفاكس: 5-20226134402

الهاتف الجوال: 201000780841

جمهورية مصر العربية

نوع النشر

مجلة دورية دولية

Yayın Türü

2 Aylık-Arapça-Yaygın-Sürelî,

İlmi, Kültürel

الطباعة

Çağlayan Matbaası

İzmir - Türkiye

Tel: +90 (232) 252 20 96

رقم الإيداع

١٨٧٩-١٣٠٦



التصور العام

- حراء مجلة علمية فكرية ثقافية تعنى بالعلوم الطبيعية والإنسانية والاجتماعية وتحوار أسرار النفس البشرية وآفاق الكون الشاسعة بالمنظور القرآني الإيماني في تألف وتناسب بين العلم والإيمان، والعقل والقلب، والفكر والواقع.
- تجمع بين الأصالة والمعاصرة وتعتمد الوسطية في فهم الإسلام وفهم الواقع، مع البعد عن الإفراط والتفريط.
- تؤمن بالانفتاح على الآخر، والحوار البناء والهادئ في ما يصب لصالح الإنسانية.
- تسعى إلى الموازنة بين العلمية في المضمون والجمالية في الشكل وأسلوب العرض، ومن ثم تدعو إلى معالجة المواد بمهنية عالية مع التبسيط ومراعاة الجوانب الأدبية والجمالية في الكتابة.

شروط النشر

- أن يكون النص المرسل جديداً لم يسبق نشره.
- ألا يزيد حجم النص على ٢٠٠٠ كلمة كحد أقصى، وللمجلة أن تلخص أو تختصر النصوص التي تتجاوز الحد المطلوب.
- يرجى من الكاتب الذي لم يسبق له النشر في المجلة إرسال نبذة مختصرة عن سيرته الذاتية.
- تخضع الأعمال المعروضة للنشر لموافقة هيئة التحرير، وهيئة التحرير أن تطلب من الكاتب إجراء أي تعديل على المادة المقدمة قبل إجازتها للنشر.
- للمجلة حق نشر المادة المرسل إليها في موقعها على الإنترنت دون إذن من كاتبها ما لم يؤكد الكاتب أثناء الإرسال على رغبته في النشر في المجلة المطبوعة. علماً بأن ما ينشر في الموقع إلكترونياً لا يترتب عليه مكافأة مالية.
- المجلة غير ملزمة بإعادة النصوص إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، وتلتزم بإبلاغ أصحابها بقبول النشر، ولا تلتزم بإبداء أسباب عدم النشر.
- تحتفظ المجلة بحقوقها في نشر النصوص وفق خطة التحرير وحسب التوقيت الذي تراه مناسباً.
- النصوص التي تنشر في المجلة تعبر عن آراء كُتّابها، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة.
- للمجلة حق إعادة نشر النص منفصلاً أو ضمن مجموعة من البحوث، بلغته الأصلية أو مترجماً إلى أي لغة أخرى، دون حاجة إلى استئذان صاحب النص.
- مجلة حراء لا تمنع في النقل أو الاقتباس عنها شريطة ذكر المصدر.
- يرجى إرسال جميع المشاركات إلى هيئة تحرير المجلة على العنوان الآتي:

hira@hiramagazine.com

USA YEMEN

Tughra Books
345 Clifton Ave., Clifton,
NJ, 07011, USA
Phone: +1 732 868 0210
Fax: +1 732 868 0211

مكتب حراء للنشر والتوزيع
شارع بغداد، مقابل بريد بغداد، صنعاء - اليمن
Phone: +967 1 214774
Fax: +967 1 204494
GSM: +967 736027560

SAUDI ARABIA

الوطنية للتوزيع
Phone: +966 1 4871414
المكتب الرئيسي: شارع التخصصي مع تقاطع شارع
الأمر سلطان بن عبد العزيز عمارة فيصل السيار
ص.ب: 68761 الرياض: 11537
الجوال: 00966507570864
hirasaudia@gmail.com
Phone-Fax: +966 1 2815226

ALGERIA
Bois des Cars 1 Villa N°68 Dely Brahim
GSM: +213 770 26 00 22

SUDAN

مركز دار النيل، مكتب الخرطوم
أكويت مربع 48 منزل رقم 31 - الخرطوم - السودان
Phone: 0024 999 559 92 26 - 0024 915 522 24 69
hirasudan@hotmail.com

MOROCCO

الدار البيضاء ٧٠ زقة سحلماسة
Société Arabo-Africaine de Distribution,
d'Édition et de Presse (Sapress)
70, rue de Sijilmassa, 20300 Casablanca / Morocco
Phone: +212 22 24 92 00

JORDAN

دار المأمون للنشر والتوزيع، العبدلي، عمارة جوهرة القدس
رقم: 182، مدخل البنك العربي، عمان/الأردن.
Phone: +962 0790316072 / +962 0787581782
hiramagazinejordan@gmail.com

EGYPT

٣٧ شارع د. عبد الشافي محمد - الحي السابع، مدينة نصر - القاهرة.
هاتف: +201091242075 - +201119482609
hiraegypt@gmail.com

UNITED ARAB EMIRATES

دار الفقيه للنشر والتوزيع
ص.ب. 6677 أبو ظبي
Phone: +971 266 789920

LIBYA

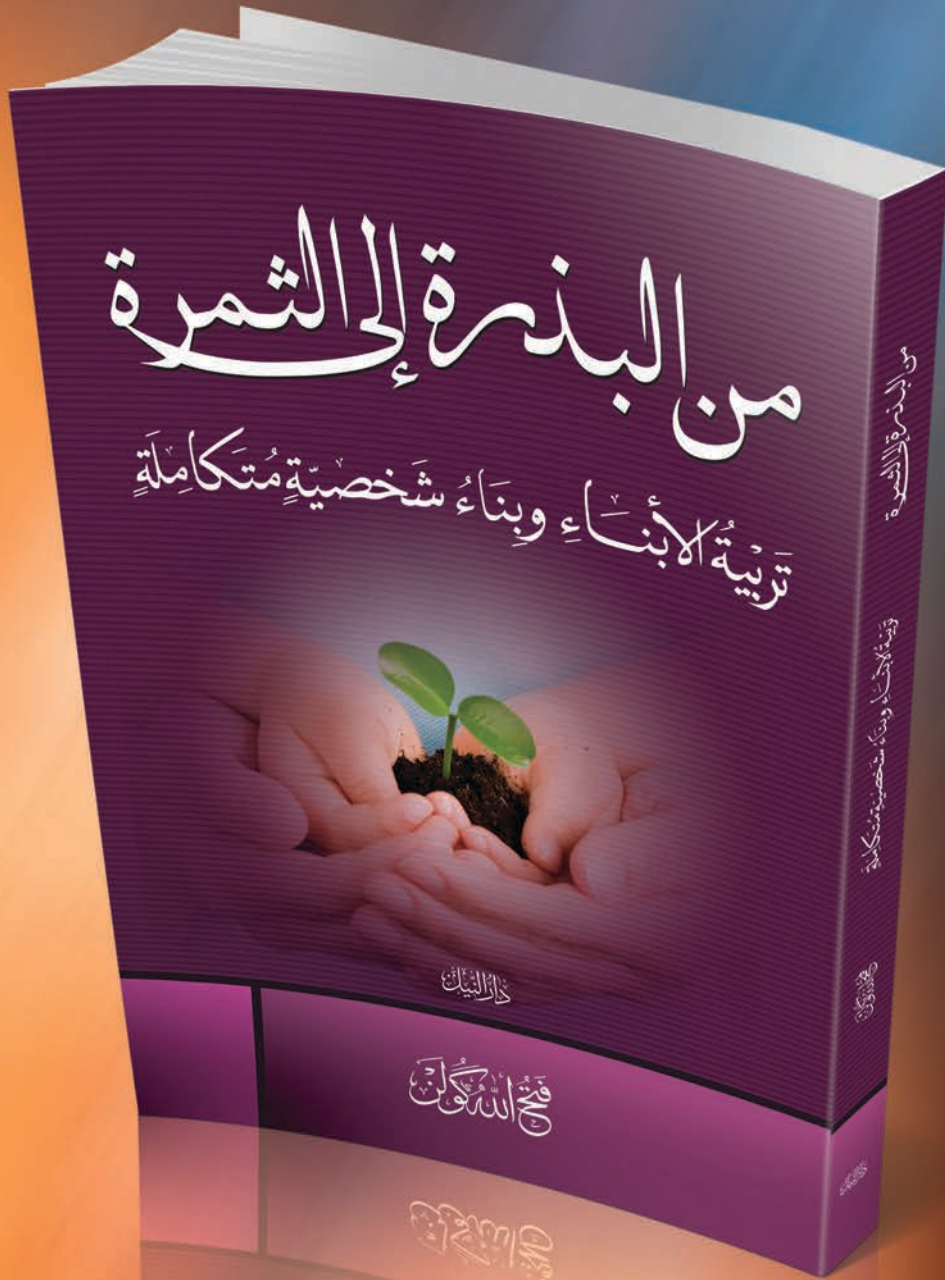
دار الرواد، ذات العماد، برج ٤-طرابلس-ليبيا.
هاتف: 00218213350332 - daralrowdooks@gmail.com
هاتف: 00218916125579 - hiralibya@gmail.com

MAURITANIA
Phone: +2223014264

SYRIA

GSM: +963 955 411 990

إن هذا الكتاب الجديد للأستاذ فتح الله كولن، هو بمثابة دورة تأهيلية للآباء والأمهات
عموماً، وللمُقبلين على الزواج خصوصاً، فهو يعلمهم كيف يبذرون هذه البذرة التربوية
المفقودة، وكيف يسقونها من كوثر القيم والكمالات المنشودة، إلى أن تصبح شجرة وارفت
الظلال، مورقة ومثمرة.



دار النيل : ٢٢ ج- جنوب الأكاديمية- التسعين الشمالي - التجمع الخامس - القاهرة الجديدة - مصر

تليفون وفاكس : +20226134402-5 الهاتف الجوال : +201000780841

daralnile@daralnile.com

www.daralnile.com



تركيا: ٧,٥ ليرة • أوروبا: ٣,٥ يورو • أمريكا: ٥ دولارات • المملكة العربية السعودية: ١٢ ريال سعودي • اليمن: ٣٧٥ ريال يمني • المغرب: ٢٠ درهم • الجزائر: ٢٥٠ دينار



النور المهاجر

هاجرُ إلى أرجاء الأرض الأربع،
وأوقدُ الشمع.. أسرع،
انشر حلول البهاء..
وفي طريق المحرومين من الضياء
وضحايا الظلام،
انبذِ الدعاوى.. والحلول الجوفاء.

* * *

